المصانع والقصور

تقاسيم المصانع وعظمتها

إنَّ قطرًا كهذا القطرَ البديع، تعاقب الحكمَ عليه الحثيون والمصريون والبابليون والأشوريون والفرس والفينيقيون والإسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والتتر والشركس، وأُعجب الفاتحون بخيراته، واغتبطوا بالاستيلاء عليه؛ لموقعه الممتاز بين الأقطار والقارات، فجعلوه محط رحالهم، ومجازًا إلى فتوحهم، لا يستغرب منه إذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق، وجودة الإبداع، وعظمة الباني.

إنَّ الشعوب التي أنشأت مصانع وادي موسى وجرش وعمان ومأدبا وبعلبك وتدمر وأفامية ودمشق وحلب والقدس، كانت ولا شك ذات معرفة بالهندسة، لا تقل عن أهل هذا العصر بها؛ لأن ما شادوه صارع الأيام وصرعها، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتحريق، بأيدي المخربين من الظالمين والمظلومين، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية.

تنقسم مصانع الشام إلى قسمين: مدني وديني؛ فالمدني كالقلاع والحصون والأبراج والمناور والمراصد والقصور والجسور والسكور والقنوات والموانى والطرق والدور والقبور والمستشفيات، والديني كالمعابد والبيع والأديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والربط والخانقاهات والملاجئ وما شاكلها.

مصانع الأمم القديمة

ومن أقدم مصانع الشام ما وجد في قرية الحصن في عجلون من أنصاب (Dolmens) يبلغ عددها المائتين على ما قال مالون، وهي عبارة عن ثلاثة أحجار عادية ضخمة أحدها طويل منبسط، يبلغ طوله ثلاثة أمتار في عرض مترين، يركز أفقيًا فوق حجرين آخرين مربعين مستطيلين. ومنها ما يبلغ علوه ٨٠ س ومنها ضعف ذلك. وقد زعموا أنها كانت مذابح دينية وأنها هي المشارف التي تكرر ذكرها في الأسفار المقدسة. والرأي المرجح أنها كانت قبورًا، ولا يعرف لها تاريخ أكيد. والعلماء يجعلون عهدها في الطور المعروف بطور الظران، وربما كانت أقدم عاديات الشام.

ومن أقدم مصانع الحثيين قلعتهم التي أنشأوها على الفرات في كركميش (جرابلس) فبقيت حسكة في حلق لينوى إلى نحو سنة ٧١٠ قبل الميلاد حتى استولى الأشوريون عليها. وبنو إسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطلعهم سوى آثار ضئيلة. وأهم ما بقي من آثارهم، معبدهم في القدس أو معبد سليمان الذي جمع إليه الصناع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ قبل الميلاد، وقد حرق هذا المعبد فرمم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ قبل الميلاد، ولما عاد اليهود بعد ثنتين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الأول في الجملة، وكانت دثرت محاسنه الأولى، ثم وقع ترميمه في أدوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد بأذى على عهد السلوقيين خلفاء الإسكندر المقدوني في الشام، ولا في زمن بومبيوس الروماني؛ لأنه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان، أن لا يقاتلوا الأمم التي يدوخونها على أربابها، وربما اقتبسوا ممن غلبوهم على أمرهم عباداتهم من غير نكير.

وسَّع هيرودوس ملك اليهود معبد سليمان، وانتهى على عهد نيرون، وكان عمل فيه ألف كاهن وألوف من العملة دهرًا طويلًا. وقد قيل: إن سليمان خزن من غنائمه لبناء معبده مائة ألف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة، قُدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليونًا ونصف مليون جنيه، وذلك ما عدا الحديد والنحاس والخشب، فكمل بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد وكان فخر أورشليم، وأجمل بناء في العالم. وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري أي العمد، فأدار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء، وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة إلى أن خربه ملك بابل. وتحيط بالهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف عدة دور، منها دار الأمم، وهي الدار الخارجية، ثم دار النساء، ثم دار إسرائيل، ثم دار الكهنة، ثم الهيكل، وقد هدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠م.

ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد، وكان خاصًا بالخشب الثمين الذي جيء به من أرز لبنان وغيره، مموهًا بالذهب والفضة ومحلى بالعاج والأحجار الكريمة، وفيه من الأواني الثمينة والمدى والأحواض وأدوات البيوت، ما صحَّ أن يعد خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع النفيسة، والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل.

هندسة الفينيقيين وآثارهم

لم يشتهر الفينيقيون بالعناية بالبناء والهندسة عنايتهم بالربح والكسب وارتياد القاصية، ومع هذا أُعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي أقامها الفينيقيون في شواطئ يونان وإيطاليا وصقلية وغاليا وابيريا وإفريقية؛ بيد أن هذا الشعب لم يخلف من آثار مدنيته أدنى ما خلفته

الشعوب القديمة. وربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد حضارتهم، أقل مما خلفته تدمر والبتراء. ولم يثبت أن بقي للفينيقيين معبد من معابدهم إلى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ.

أمَّا آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها، فإن الباقي من أساس حصن صور الذي أعجز اقتحامه القدماء الفاتحين كسراغون بخت نصر والإسكندر، لا يدل على كبير أمر، وقد بنى الإسكندر بين البر والجزيرة فيها سده الغريب، وكان بناء صور إلى عصر ابن بطوطة «ليس في الدنيا أعجب وأغرب شأنًا منه». وقال ابن جبير: إنه يضرب المثل بحصانتها وذلك أنها راجعة إلى بابين؛ أحدهما في البر والآخر في البحر، وهو يحيط بها من جهة واحدة، فالذي في البر يُفضي إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب، أما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في المدن البحرية أعجب وضعًا منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. وكانت بيوت صور كبيوت طرابلس ذات طبقات ست وسبع وثمان على عهد الفينيقيين.

ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائمًا، ولا يعرف إذا كان من صنع الفينيقيين أو البلاسجيين؛ لأنه أشبه بعمل البلاسجيين سكان إيطاليا ويونان القدماء. وهكذا يقال في أسوار بيروت وصيدا وجزيرة أرواد وعمريت ومعبد هذه على رأي (رنان) أقدم معبد؛ بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي. أما قبور الفينقيين فهي أهم ما اكتشفت في أرضهم، وكلها تقريبًا نقرت في الصخر كمثيلاتها في أرجاء يهوذا والعرب؛ أي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها. والقبور التي ظهرت في عمريت هي أهم ما عرف من

نوعها، وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الأربعة التي وجدت في هذه المدينة، ولا تزال محفوظة في متحف فروق.

بحث الأثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الأكثر، وامتدوا في حفرياتهم إلى أرض العرب للعثور على مدنية يعتد بها سبقت الرومان واليونان. وكل ماعثروا عليه تافه في الحقيقة. وقد تبين لهم أن البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين: دائرة الرجال أو الثوي وهو المكان المعد للضيف «السلاملك»، ودائرة الحريم، شأن قصور الشرق الإسلامي لهذا العهد. وما قصر هركان في عراق الأمير، وحصون القدس، وبرج أنطونينا، إلا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية، وتقل في فلسطين وشمالي غربي ديار العرب القبور التي يرد عهدها إلى الزمن الذي يسبق العصر اليوناني، وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر يستدل منها أنها مثال من أمثلة البناء الأشوري. وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن، والأثريون يوالون النبش ليكشفوا شيئًا يستدلون منه على مدنية أقدم أُمة نزلت الأرض المقدسة.

عاديات الرومان

أُقيمت عدة أنصاب في الشام لملوك الرومان منها ما عثر عليه الأثريون.

ذكر وادنكتون كتابة وجدها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب أُقيم لأحد ملوك الرومان فيه: «للملك اليوس قيصر أدريانوس أنطونينوس بيوس العاهل»، ووجدت كتابة في قرية أم الجمال في حوران كتب فيها: «للعاهل القيصر مرقس أورليوس أنطونينوس أغسطس قاهر الأرمن والبرتيين». ولهذا القيصر كتابة أخرى في سهوة الخضر من جبل حوران، وأُخرى في الشهبة المسماة فيليبولي نسبة إلى الملك فيلبس العربي،

ووجدت في السويداء أيضًا كتابة يونانية مؤذنة بإقامة أثر تكرمة للملك كومود، أقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية، ذكرى جلب الماء إلى المدينة وضواحيها سنة ١٨٧، وعثر في جنوبي اللاذقية على مقربة من عُدوة النهر الكبير على كتابة تدل على محطة عسكرية. وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر كتابة فيها: «بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتميوس ساويروس برتينكس أغسطس، أقام هذا النصب بوبميابوس اينجيوس نذرًا للمشتري».

يصعب الحكم على كل أثر بعينه، ونسبة كل بناء إلى الأمة التي أقامته، وكل واحدة منها تركت على الأغلب في هذا القطر أثرًا مخلدًا متلدًا تفاخر به. فالطرق الرومانية التي أُنشئت من القدس إلى الأرض النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها، وطريق مادبا إلى البتراء والعقبة حتى البحر الأحمر وطريق جرش وادي موسى، والطريق المبلط شرقي صرخد الممتد إلى العراق، وكان يسمى بالرصيف، هي من الآثار المهمة كالمعسكر الروماني في أذرح وآثار قنوات وشهبة وسالة ودامة العليا ولبن.

عاديات البتراء وجرش وعمان

عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها، ومنها الهياكل الجليلة، والدور الفخمة، والأندية والمجالس والقصور، والحمامات والمسارح والمدافن والمسلات، وقد رأى فيها «دومازفسكي» آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية والشامية. ومعلوم أن أهل البتراء عرب من النبط شيدوها حوالي القرن السادس قبل الميلاد، وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين إلى أن زاحمتها تدمر في القرن الثالث. ومن أجمل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون

وهي دار الحكم نقرت في الصخر وجعلت ثلاث قاعات وبهوًا. وهذا القصر الفخم الذي يدعى خزنة فرعون كان في الغالب معبدًا لايزيس، أُنشئ على عهد الإمبراطور أدريانوس سنة ١٣١ وفي واجهة هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة أصغر منها ونقوش وتيجان، وربما كان يصعد إلى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من أثر الأدراج. وإذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع أحجارها وتتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها. وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها، وفي الصدر القاعة الكبرى أو الردهة المدهشة. وكل هذه السواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر أو في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يجعلون منه ما يشاءون. والذي يزيد في الدهشة أن الحجر أحمر في هذه الجبال أو من نوع الحجر الرملي؛ ولكنه بمتانته كالصخر الأصم. ثم ترى فيه ذاك اللمعان، فمن موجة حمراء إلى أُخرى زرقاء، إلى مثلها بيضاء إلى جانبها دكناء، فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير، ورزق بانيه يدًا صناعًا تتفنن في تقطيعه ونقره، بما فاق به البناة في سائر عاديات الشام. فإن كانت قلعة بعلبك تنم عن ذوق سليم وعلم واسع بالنقش وجر الأثقال، فإن هذه العاديات الأزلية تنادي بلسان حالها: هذه عظمة الديان إلى جانب تفنن الإنسان.

وفي هذا الجوار أقدم النواويس وأهمها وبعد ذلك يجيء قصر البنات؛ وهو بناء من الحجر رصفت حجارته كما ترصف الأبنية الضخمة من قلاع وأبراج وأسوار ونحوها. والغالب أنه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل الإسلام. وهناك ولا سيما في خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها أنها من عمل النصارى عندما كانت

لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان. وعلى مقربة من تلك الجبال الشوامخ والمنفرجات والأودية بعض نواويس وآثار؛ ولكنها دون آثار البتراء في المكانة. وفي جبل الصبر ملعب أو صورة تمثل قتالًا بين سفن حربية.

ويقول بعض علماء الآثار: إن معظم القبور التي حفرت كانت على مثال قبور الحِجر، يرد عهدها إلى الحارث الرابع أحد ملوك البتراء أي ٩ و٣٠ قبل المسيح وبعده. وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها. وإن ما يشاهد من صور أبي الهول وإيزيس ورءوس الحملان يدل على أن هذا الإقليم تأثر بالمدنية المصرية. والمسلتان القائمتان في النجر تمثل ربي النبطيين اللات والعزى، وكانت النجر مركز عبادة النبط قبل العهد اليوناني بستة قرون على الأقل، وقد دخلت المدنية اليونانية البتراء على عهد البطالسة فاختلط العنصران المصري والشامي، وظل القول الفصل فيها للمدنية اليونانية إلى عهد الحارث الرابع. وفي البتراء ٨٥١ مصنعًا من القبور والمعابد والمذابح.

وعدوا من مفاخر وادي موسى الملعب العظيم المنحوت في الصخر، قطره ١١٧ قدمًا وفيه ٣٣ صفًّا من المجالس، يسع من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ من المتفرجين، والملعب الروماني في عمان (ربة عمون) أكبر الملاعب في الشام؛ وهو مركب من ثلاث مراتب جعلت المرتبة الأولى خمسة صفوف من المقاعد، والمرتبة الوسطى أربعة عشر صفًّا، وللمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفًّا من المجالس. وهو يسع أربعة آلاف ناظر أيضًا. وفي أسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأسود والنمورة والتماسيح.

ويرد تاريخ ارتقاء جرش إلى القرون الأولى للمسيح، وتاريخ أبنيتها إلى أباطرة القرنين الأول والثاني، وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني

حتى في الأصقاع البعيدة، كانت جرش من جملة المدن المهمة من بين مدن العرب، وعمدها الماثلة للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ مترًا وقطره خمسة أقدام، وملاعبها وهياكلها وساحاتها وحماماتها تُذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض الأرجاء المهمة التي تولوا الحكم عليها.

وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله: «ذكروا أن بدمنة مدينتي عمان وجرش بالشام ملعبين؛ فأما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة، وبعض بناء أبوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعًا، وبهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط، وذلك الحائط به مجلس للملك، وأما النصف المستدير فإنه مدرج، درج بعضها فوق بعض، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية أوسع من السفلى، وبين هذه الأدراج الدائرة أبواب ومسالك، وكل درجة وعليها مرتبة من الناس، وكلهم ينظرون إلى الملك وهو ينظر إليهم كلهم لا يحجبون عنه ولا يحجب عنهم في ذلك المجلس وكأنما هو ليوم الحكم العام فقط، وبالقرب من هذا الملعب أيضًا ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهنَّ بكرة، وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة، وكأنما كان على رءوسها من الحجارة عتبات من عمود إلى عمود، وفوق ذلك أبنية لأهلها وآثار شاهدة، ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين إلا مدينة بعلبك وباب البريد بدمشق اهـ».

وصف المحدثين خرائب جرش

تبدأ خرائب جرش من الجنوب بباب النصر المسمى باب عمان، وهو بناء عرضه ٢٥.٣٠م والشق الأوسط منه ٦.٤٧ على ١٢ مترًا من العلو، وله من كل جهة باب، وهذا البناء أشبه بقوس النصر المنسوب لتراجان في مدينة رومية، ولذلك يظن أن البناء يرد عهده إلى القرن الثاني للميلاد.

وفي غربي هذا الباب سطح واسع فيه محلان، وفي الأسفل مسرح لتمثيل الحروب البحرية، وله بحيرة طولها ١٥٥.٥٠م وعرضها ٥٥ مترًا، وله أربعة سدود من جنوبها وعمقها ٤.٧٠م ومقاعد للمتفرجين على طول المحل. وهذا الحوض متصل بقناة مع العين، ويفصل الحائط الشمالي المسرح بملعب كبير قطره ٩٠.٥٥م لا تزال ترى فيه أربعة صفوف من الدرجات وعلى مقربة من الملعب بقايا مدفن كبير. وعلى بضع خطوات من الغرب بقايا معبد طوله ٣٠ مترًا وعرضه ٣٠.٢٠، وكان للبناء المحيط به عمد منفردة أحد عشر عمودًا من الشمال ومثلها من الجنوب، وثمانية أعمدة من الشرق ومن الغرب. وكان للدهليز صفان من الأعمدة وله تيجان قورنتية وعرض الرتاج ٤.٧٠م، وكاد طول غرف المتفرجين التي ما زالت جدرانها الجنوبية سليمة إلى عشرة أمتار ٢٥ مترًا وعرضها ١٥. وقد فقدت تيجان القواعد المركبة (الركائز) المبنية من الصخر المحكم الوضع وقام في العالي طنف بسيط قليل البروز. ومجموع البناء حسن للغاية. وقام مسرح الجنوب المتصل بالجهة الغربية من هذا المعبد على سور المدينة. ولا يزال ٣٢ صفًا من المقاعد سليمًا. ومعظم قطر المسرح ٨٧.٧٦م. وهناك ممشى على شكل نصف دائرة يتصل مع الأسفل بخمسة سلالم ومع الأعلى بتسعة، وتقسم هذه الدرجات إلى قسمين وله أربعة دهاليز من جهة الجنوب.

ويمتد في الشمال الشرقي من المعبد والمسرح ميدان ممهد تحيط به عمد لطيفة، تؤلف نصف دائرة مفتحة نحو الجنوب الغربي. ولا تزال معظم السواري وعددها ٥٦ محفوظة بحالها، وهي من الطراز اليوناني يتصل بعضها بالآخر من سطوح الأعمدة. وفي الشمال الشرقي من الميدان تبدأ سلسلة أعمدة مستقيمة الأضلاع تجتاز المدينة كلها وطولها ٨٠.٣ مترات وعرضها ١٢.٦٠ مترًا، والمسافة بين الأعمدة الموضوعة

ثلاثة أمتار. ولم يبق من الـ٥٢٠ عمودًا سوى ٧١ عمودًا قائمة إلى اليوم. أما الأخرى فقد تداعت بالزلازل أو هدمتها يد الإنسان في العهد الحديث، وقد أصبح أكثر هذه الخرائب مقالع لأهل القرية يأخذون من أبنيتها الجميلة حجارة لبنائهم. وعلو هذه الأعمدة من ٦.٥٠م إلى ٩م يدخل في ذلك الأساس والتاج. أما العمد القائمة وسط الشارع فهي من الطرز القورنتي، وتيجانها من أرقى ما صنع الصانعون. وما كان منها بالقرب من الميدان وعلى نحو الباب من الشمال فهو من الطراز اليوناني.

ويرى الناظر من جانبي الشارع بقايا صف آخر من الأعمدة ربما كانت مجازات بين الأعمدة على طول الدور. وهناك جسر يجتاز القناة على خمس حنايا وعرض الأوسط منها ١١.٤٠ س. وثم بقايا بناء عظيم منقوش كان يتخذ محكمة جُعل على شكل نصف دائرة، نصف قطر دائرتها عشرة أمتار ولها فوارة. وعلى مقربة من هذا خرائب أروقة المعبد الكبير الضخمة العظيمة. وقد تهدم جزء من سطح أعلى الباب الأعظم وهو مجنح بفرج لنوافذ مثلثة الشكل منقوشة أجمل نقش. والنقوش السالمة التي تزين الواجهة الغربية هي من طراز رائق بديع. وهذه الأروقة تؤدي إلى معبد عظيم يدعى عادة معبد الشمس وهو في مستو طوله ١٦٠.٦٥م وعرضه ١٠٤.٨٥م يحيط به ٢٦٠ عمودًا، وطول المعبد ٢٦.٧٠م وعرضه ٢٠. ويتألف رواق المعبد من صفين من الأعمدة أحدهما من ست والآخر من أربع. وزيادة على ذلك عمود من كل جهة من الحواجز البارزة من المعبد. وفيه تسع سوار علوها ١٣.٨٠، وعرض الرتاج خمسة أمتار وعرض المجالس ١١.٢٠م وطولها ١٧.٨. وفي جنوبي المعبد كنيسة وكاتدرائية ذات ثلاثة صحون. وفي الجنوب الغربي كنيسة أصغر منها. ويظهر أن كنيسة ثالثة في شرقي الأروقة كانت من جملة الأجزاء المتممة لمعبد الشمس. ومن هناك تنشعب شوارع أُخرى

وتتقاطع الطرق، وكانت مزينة بتماثيل ونصب وعمد وسوار لا يزال بعضها أثرًا شاهدًا على العظمة الماضية.

أمَّا ملعب الشمال الذي كان خاصًّا على ما يظهر بقتال الحيوانات والصراع فكان له ١٧ صفًّا من الأدراج ومجموع علوه ١٢ م، وفي محيط الدائرة منها بين الصف الثامن والتاسع خمسة معابر أو مماشٍ ترى بين كل واحد منها كوة عظمة وثنتين أصغر حجمًا على شكل الصدف. والحمامات العامة عبارة من مجموع غرف وعقود يطلق عليها اسم الخان. ومدخلها بناء سلم برمته من عوادي الأيام تعلوه قبة ومساحته ١٦.٧٠ مترًا مربعًا. وهناك سلم يوصل إلى محل الحمامات الحقيقي مؤلف من أرض مساحتها ٦٧.٧٠م طولًا و٣٠ عرضًا ولها جناح مصاقب لها من الجنوب طوله ٤٢م وعرضه ١١.٧٠م. وبالقرب من جامع القرية بناء آخر قديم كان حمامًا أيضًا وعلى الشاطئ الشرقي من النهر تشاهد حيطان سور كنيسة رابعة طولها ٦٠ مترًا وعرضها ٦٠.٣٦م وحنية المحراب مزدانة بكوى على شكل صدف لم يبق من سواريها سوى تسع قواعد يونانية وبعض أسطوانات. وكان هذا المعبد في الأصل مدفنًا للربة نيميزيس ويرد عهدها إلى الإمبراطور تراجان.

عاديات تدمر

ذكر بعض الأثريين أن مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة، وقد أصبحت في أوائل النصرانية إحدى المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة أوربا وآسيا وأعني البتراء وتدمر. قال ياقوت: وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليهما السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان؛ ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيبًا جهلوا بانيه أضافوه إلى

سليمان وإلى الجن. قلنا: وكان القدماء يعتقدون أن بعض مدن ساحل الشام بناها الآلهة قال المعري:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما ... رأوا حسنًا عدوه من صنعة الجن

وقال النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال الإله له ... قم في البرية فاحددها عن الفَنَد

وخَيّس الجن إني قد أمرتهمُ ... يبنون تدمر بالصّفاح والعَمَد

خربت آثار تدمر سنة ٢٧٣م على يد أورليانوس الروماني لما قهر زينب ملكتها، ولما انتقض أهلها عليه عاد فافتتحها عنوة. وأعمل في أهلها السيف أيامًا متوالية. ثم أمر فبعثرت الأبنية، وقوضت الهياكل، ودكت الأسوار، وهدمت القلاع. فأصبحت تلك المدينة الزاهرة قاعًا صفصفًا وظلت على هذه الحال قرية حقيرة إلى عهد ديوكليتيانوس أيام استخدمها الرومان لرد غزوات البادية وغيرها.

وصف عاديات تدمر[1]

وبعدُ فإن كل ما دونه مؤرخو العرب في تدمر وما وصفها به رحالتهم مختصر جدًّا لا يستفاد منه الفائدة العلمية اللازمة، ويتعذر علينا من النصوص التي اتصلت بنا أن ندرك حقيقة حالة تدمر وعمرانها حين فتحها المسلمون. والمعروف أن تدمر لم تستعد مكانتها ولا بعضها منذ استيلاء أورليانوس عليها في سنة ٢٧٣م. يوم دك معاقلها وهدم دورها ودرس قصورها فأخذت تدمر حينئذ بالانحطاط إلى أن وصلت إلى ما هي عليه اليوم.

---

(١) كتب وصف تدمر الأمير جعفر الحسني.

إن اتصل بنا تاريخ هدم تلك المدينة فإنا نجهل ما انتاب البقية الباقية من عمرانها بعد ذلك العهد حتى منتصف القرن الثامن عشر، أيام نزلها في سنة ١٧٥١ المهندسان الإنكليزيان وانكس ووَود فرسما مخططًا لتلك الخرائب ونقلا إلى بلادهم جملة رُقم تدمرية ويونانية تمكن بفضلهما سوينثن وبرتليمي من قراءة حروفها وتفسير معانيها.

ومنذ ذاك العهد اشتهرت تدمر في الغرب ولا سيما عند علماء الآثار وغواتها؛ فكثر شد الرحال إليها وزاد زوارها في السنوات الأخيرة خاصة وذلك بالنظر لسهولة المواصلات وتوفر أسباب الراحة فيها. وبالرغم مما انتاب تدمر من عوامل الهدم والتخريب، فإن القسم القليل الذي سلم من كوارث الأيام وأحداث الدهر ينبئ بجمال عظمتها وجلال قدرها. فلا يتأتى لمن يقف وسط تلك الأطلال ويتأمل هذا الإتقان لا تأخذه حيرة في دهشة أو رعشة في وحشة لهذا الإبداع المعجب ودقة الصنعة وتناسب الجمال والعظمة. فكل جزء منها شاهد على سلامة ذوق مخططها ومهارة عمالها وصناعها. فقد جمعت بين الإبداع والإعجاز حتى ليتساءل المرء وهو في القرن العشرين إن كان هذا ثمرة جهود الإنسان أو عمل من صنع الجان.

تعد خرائب تدمر اليوم من أكبر خرائب الشام وأهمها، وتنقسم بناياتها إلى ثلاثة أقسام: الهياكل والبلدة والمدافن. ولم يبق من الهياكل سوى الهيكل الكبير وهو هيكل بعل والهيكل الصغير وهو هيكل بعلشاميم؛ والأول هو أكبر بنايات تدمر وأهمها يقع إلى الجهة الشرقية من البلدة، وهو عبارة عن فناء واسع مربع الشكل يبلغ طول كل من أضلاعه ٢٣٥ مترًا يحيط به جدار ذو نوافذ ارتفاعه نحو من ١٥ مترًا، ومدخله من الغرب. وهذا المدخل يؤدي إلى دهليز قام على عمد يبلغ ارتفاع كل منها ١٤ مترًا، ومنه تجتاز الواجهة الداخلية، وتعتبر هذه من أبدع مصانع تدمر

وأتقنها صنعًا. ويحيط بهذا الهيكل من داخل الجدار رواق كان قائمًا على ٣٩٠ عمودًا تهدم اليوم معظمه. وقد شيد في وسط هذا الفناء الهيكل الأصلي وطوله ٦٠ مترًا وعرضه ٣١ مترًا ونصف المتر. وأقدم كتابة وجدت داخل هذا الهيكل مؤرخة بسنة ١٧م. ويرجح أن هذا الهيكل بني في أوائل العهد المسيحي.

والهيكل الثاني إلى شمالي البلدة ومدخله من الشرق وهو أصغر حجمًا من الأول وأقل كلفة، ويكاد يكون مجموعه الخارجي سالمًا ومع بساطته تجد إتقانًا في بنائه ودقة في نقوشه، وقد تمَّ بناؤه في النصف الأول من القرن الثاني للميلاد.

إنَّ ما بقي من آثار البلدة هو أروع شيء في خرائب تدمر وأعظم منظرًا. ومنها تلك الأروقة التي كانت تمتد من جانبي أهم شوارع البلدة فهي أبهج منظرًا لعظمة تلك المدينة، وأطول هذه الشوارع هو الذي يخترق البلدة من الشرق إلى الشمال ويقسمها إلى منطقتين وطوله ١٢٠٠ متر وعدد أعمدة كل صف يبلغ ٣٧٥ عمودًا، ارتفاع كل منها ١٧ مترًا، وقد تهدم معظمها فلم يسلم منها سوى ١٥٠ عمودًا. ويخترق هذا الشارع من منتصفه شارع آخر على شاكلته وعند ملتقاهما يؤلفان مصلبًا، وكان على مقربة منه تمثالًا أذينة وزنوبيا. وفي منتصف كل عمود ركيزة قامت عليها تماثيل مشاهير حكامها والصالحين من رعيتها، ولم يزل مدخلها المدينة الشرقي قائمًا وله منظر رائع ومرأى جميل. وما خلا ذلك من الأنقاض المتراكمة الباقية والأعمدة والأحجار المنحوتة مبعثر مشتت عرف بفضلها أصحاب الهندسة تخطيط أبنية المدينة وهندسة شوارعها وأزقتها.

إنَّ قبور تدمر مبعثرة حول البلدة ومعظمها في الجهة الغربية في وادٍ يعرف بوادي القبور لكثرتها فيه. وهي على نوعين: منها ما هو قائم على شكل أبراج مربعة في ثلاث أو أربع طبقات منقسمة حجرًا وفي جدرانها القبور، والنوع الثاني كهوف نقرت في الصخر على سفح الجبل وهي ذات إيوانين أو ثلاثة، ومن القبور ما هو في الجدر ومنها ما هو على شكل النواويس، ويختلف عدد القبور في كل مدفن بين العشرين والسبعين، وهو ملك أسرة واحدة أو أكثر. وكان لأبناء الأسر في تدمر عناية خاصة بمدافنهم يتنافسون بإتقانها وزخرفتها، ومنها ما هو أشبه بقصور منها بقبور. وكل هذه العناية لحرصهم على راحتهم في دار البقاء، كما تنص على ذلك رُقمهم القبرية اهـ.

أقام الرومان بين دمشق وتدمر إلى الفرات اثنين وخمسين حصنًا أو قلعة. يبعد كل منها عن الآخر ثلاث ساعات. ولا شك في أن الحرس الروماني كان في بعضها. وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث البادية وطريقًا من صرخد إلى البصرة وطرقًا من حوران إلى البلقاء إلى عقبة أيلة وما إليها، وكان ذلك في أيام عظمتهم. قال أحد علماء الهندسة من الفرنج: إن الرومان لما أصبحوا سادة الأرض وأمسى معهم جميع الشعوب بمثابة العبيد عدلوا وهم في أوج عزهم عن أعمال في العمران كان فيها عزهم ونجاحهم واستسلموا إلى الكسل وإضاعة الأوقات.

وبعد أن فتحت زينب أو زنوبيا سلطانة تدمر المشهورة القطر المصري، عمرت الأبنية التي جلبت إليها الأمم من أقطار الأرض ولا سيما اليونان. ولما جاء يوستنيانوس سنة (٥٢٧) جدد بناء الأخربة في تدمر وشيد أبنية أخرى فيها وجعل لها سورًا، ثم سطت عليها الزلازل كثيرًا. وما يرى اليوم من الأثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد على ما

كان هناك من عمران ممتد الرواق. وما استخرج ولا يزال يستخرج من أرضها من التماثيل والأنصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة.

ومن كل أنواع الأنام مصور ... شباب وشمط يمرحون وشيب
ومجلس أُنس يفسح الطرف ملؤه ... قيان تغني وسطه وشُروب
وصرعى وقتلى في قتال عساكر ... تحول حصون دونهم ودروب
فمن جانب أضحت تُصب مدامة ... ومن جانب أضحت تُشب حروب
خليطان هذا للقراع معبس ... يصول وهذا للسماع طروب
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم ... يبين لنا بشر بها وقطوب
وكل يُعاني شغله غير أنه ... على فمه دون الكلام رقيب
ملاعب فيها الملك رامٍ بطرفه ... وكل ابن دنيا إن نظرت لعوب
وعاشوا طويلًا ثم فرق شملهم ... زمان أكول للأنام شروب
فلولا مكان الدين قلَّ لفقدهم ... بكاء لنا في إثرهم ونحيب
ملوك أقاموا ما أقاموا أعزة ... وقد شعبتهم بعد ذاك شَعوب
وخُيل للرائي ليذكر عهدهم ... خيال لعمري إن رأيت عجيب
خيال لهم يهدى إلى كل أُمة ... لقصد اعتبار إن رآه لبيب

عاديات بعلبك أمس واليوم

إنَّ بقايا هيكل الشمس أو المشتري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح أو البهو الكبير الماثلة إلى اليوم في قلعة بعلبك، لأكبر دليل على ارتقاء فن الهندسة حتى في العصور التي سبقت الرومان واليونان. وقد عدت أحجار بعلبك ومنارة الإسكندرية (الإسكندرونة) من جلة

عجائب الشام. فقد قال الهمداني في أحجار بعلبك: إن فيها حجرًا على خمسة عشر ذراعًا أقل أو أكثر ارتفاعه في السماء عشرة أذرع في عرض خمسة عشر ذراعًا في طول خمسة وأربعين ذراعًا. هذا حجر واحد في حائط. وأما منارة الإسكندرية فإنه يصعد إليها رجل على برذون حتى يبلغ أعلاها، وهي مبنية على سركان من زجاج.

وفي بعلبك هيكلان كبيران طول أصغرهما ٢٢٥ قدمًا وعرضه ١٢٠ قدمًا، وكان محاطًا بأعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها ٤٥ قدمًا وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدمًا، وكان محاطًا بأربعة وخمسين عمودًا يبلغ قطر الواحد منها ٧ أقدام وعلوه من قاعدته إلى قمته ٨٩ قدمًا، وقد بلغ طول بعض الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدمًا وسمكه ١٢. قالوا: وكانت هياكل بعلبك تضاهي هياكل اليونان بعظمة بنائها؛ ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة. ذكر ابن حوقل أن قلعة بعلبك الحصينة الجميلة من أجلّ مباني الأرض؛ وإنما بنيت قلعة دمشق على مثالها، وهيهات لا تعد من أمثالها، أين قلعة دمشق من قلعة بعلبك وحجارتها تلك الجبال الثوابت، وعمدها تلك الصخور النوابت.

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه إنَّ السماء نظير الماء في الزرق

قال شيخ الربوة: وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعًا، وهو من كل جهة ثلاثون ذراعًا وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش أجنحته. وفي أربع قرن السقف أربعة أصنام وأسماؤها ودّ وسواع ويغوث ويعوق. وبمقطع الحجارة حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروك إلى وقتنا هذا، وإلى ما يشاء الله مثالًا للناس؛ يعني أن من هاهنا حملنا الأحجار الثلاثة المبنية بالقلعة -وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الحبلي- وبالحصن أيضًا عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعًا

وفي الأرض منها نحو أربعة أذرع ودوره نحو ذراعين وأكثر عددها نحو ستين عمودًا، وكان على رءوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم اهـ.

وإنَّ آثار بعلبك بما فيها من العمد الضخمة ومنها من النوع المعروف بالمحبب (غرانيت) الذي جلب من السودان على ما يظهر تدل دلالة صريحة؛ على أن كل هذا من صنع الروما وبأيدي مئات الألوف من العملة المسخرين المستعبدين. وهكذا قامت جميع آثار الرومان بإرهاق الإنسان للإنسان؛ بيد أنهم خلفوا عاديات عظيمة أعلت بين الأمم القديمة ذكرهم، وجعلتهم موضع الإعجاب على توالي الأحقاب.

ويصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في أهرام مصر: إنها صبرت على ممر الأزمان بل على ممرها صبر الزمان. فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلًا هي غاية إحكامها حتى إنها تكاد تحدث عن قوقها وتخبر بجمالها وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم. أو ما قاله في يرابي مصر: فالحكاية عن عظمها وإتقان صنعتها وإحكام صورها وعجائب ما فيها من الأشكال والنقوش والتصاوير والخطوط، مع إحكام البناء وجفاء الآلات والأحجار مما يفوت الحصر. ومن أجمل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة:

خـــرب حـــارت البريـــة فيهـــا ... فتنـــة الـــسامعين والنظـــار

معجـــزات مـــن البنـــاء كبـــار ... لأنـــاس مـــلء الزمـــان كبـــار

ألبـــستها الـــشموس تفويـــف در ... وعقيـــق علـــى رداء نـــضار

وتحلـــت مـــن الليـــالي بـــشاما ... ت كتنقـــيط عنبـــر فـــي بهـــار

وسقاها الندى رشاش دموع ... شربتها ظوامئ الأنوار
زادها الشيب حرمة وجلالًا ... توجتها به يد الأعصار
ربَّ شيب أتم حسنًا وأولى ... واهن العزم صولة الجبار
معبد للأسرار قام ولكن ... صنعه كان أعظم الأسرار
مثل القوم كل شيء عجيب ... فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمرًا يجـ ... ـنى ولكن بالعقل والأبصار
وضروبًا من كل زهر أنيق ... لم تفتها نضارة الأزهار
وشموسًا مضيئة وشعاعًا ... باهرات لكنها من حجار
وطيورًا ذواهبًا آيات ... خالدات الغدو والإبكار
في جنان معلقات زواه ... بصنوف النجوم والأنوار
وأُسودًا يخشى التحفز منها ... ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضاب ... باديات الأنياب غير ضواري
في عرانينها دخان مثار ... وبألحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في ... كل آنٍ رواتع الأزوار
ضمها كلها بديع نظام ... دق حتى كأنها في انتثار
في مقام للحسن يعبد بعد الـ ... ـعقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسمًا وأبهى ... ما تحج القلوب في الأنظار

أنطاكية وحمص وأفامية والبارة ودمشق

هذا إجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها، ومن أهم آثارها أنطاكية التي بناها أنطيغنوس وأكمل زخرفها سلوقس سنة (٣٠٠) قبل الميلاد. وكان فيها من عجائب الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان

أن تعمل مثله في أرضها، ولولا أن الزلازل تحيفتها في أدوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة. وكانت أنطاكية عاصمة الشرق أيام أغسطس قيصر، كما كانت رومية عاصمة الغرب. ومن يدخل أنطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والقنوات ودور التمثيل يبكي لبلد اتفقت الآفات السماوية والأرضية على تخريبه، ولم يبق من عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة.

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية أو اليونانية بحيرة قدس أو خزان حمص وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها مصانع حلب، وهي صورة تامة من نشوء الهندسة، وقد غنيت هذه المدينة الأخيرة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية. وما برح معظمها بحاله. ومن أهم ما في شمالي الشام ملعب أفامية (قلعة المضيق) وملعب دفنة وكان فيها معبد أبولون رب الشماس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان، ونصب فيها برياكسيس المهندس الآثيني تمثالًا للرب اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة، وهي قابض بيده على قيثارة، وقد صورت صورته على نقود أنطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرهما من الأرباب.

وكانت مدينة أفامية على عهد السلاقسة خلفاء الإسكندر من المدن الكبرى بدليل ما ذكره الهمداني من أنه كان فيها ملعب يعد من البناء المذكور في العالم، وكانت مستقرًا للجيش الرومي. وفيها زرائب وإصطبلات تئوي ٣٠٠ فيل و٣٠٠ جاموس و٣٠,٠٠٠ حصان ترعى في سهلها الخصيب وترد ماءها العذب النمير. وقد دك حصنها بومبيس. وكان من أمنع الحصون. وفيها إلى اليوم آثار شارع يمتد من الباب الشمالي وعلى جانبيه سوارٍ وعمد مختلفة الأشكال والحجوم تبلغ نحو ١٨٠٠

سارية يرد عهدها إلى أواخر حكم الرومان. ولا يزال كثير من الأرتجة والأبواب قائمًا، وهناك خرائب أُخرى لم تعلم ماهيتها.

ومنها خرائب البارة في الشمال غربي العاصي، وخرائبها واسعة ومهمة وشوارعها العديدة وبيوتها «على رواية فان برشم» لا تزال محفوظة. منها بقايا خمس أو ست كنائس وبيع. وفي ضواحيها بيوت مهملة عملت من الحجر الصلد يكفي أن تسقف بالخشب حتى تسكن وهي خالية. وإن ما هنالك من مصانع ومعابد وبيع وقصور وكلها تقريبًا من العهد المسيحي قد لا يخلو من نقوش، ويرد عهدها على الأغلب إلى القرن الخامس والسادس، وفي قلعتها من أحجار البناء ما يبلغ طوله المترين والثلاثة وعرضه ٧٥ س زبرت عليها حروف يونانية. وأغرب ما في عاديات هذه القرية أن خرائبها الواقعة على أربعمائة متر تقريبًا ما زالت بحالها تذكر المرء بآثار بومبيه ومساحتها السطحية أربعة كيلومترات مما دلَّ على عظم المدينة في القديم. وقد قام بين المحلتين قصر ذو طبقتين محفوظ في الجملة اسمه دير سوباط وفيه آثار ونواويس وأبواب أزلية. وقد وجد على أحد أبوابها كتابة يونانية معناها: «ليحفظ المولى من ملكك ومخرجك الآن وفي العصور المقبلة آمين» وكانت هذه المدينة في سعة حلب كما يفهم من خططها.

ومن أهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخرقها من الشرق إلى الغرب؛ أي من الباب الشرقي إلى باب الجابية، وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمد، وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوانيت. وكان مقسومًا إلى ثلاثة أقسام الوسط للدواب والعجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين. والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو أحد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك أن الشارع لم يكن عرضه أقل من خمسة وثلاثين مترًا. ومن العاديات القديمة في دمشق

مدخل الكنيسة ولا سيما من الغرب، وهي التي أصبحت في الإسلام الجامع الأموي.

حوران ولبنان وغيرهما

ولا تزال خرائب بصرى قصبة حوران، وأحصن مدن باشان ومعقل الرومان، شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة، وكان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلًا وربع ميل وعرضها ميلًا، ويحيط بالسور ربض كثير الباني، ومحيطها خمسة أميال لها سور عالي الجدران، وثيق البنيان، وقلعة لا أحصن منها في عامة أرض الشام. ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رحبة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة، وبدائع البناء، وأساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح، وركام الأنقاض وبيوت الأقدمين. وقوس نصر أُقيم للقائد فيليبس الذي صار إمبراطورًا وهو من أهالي بصرى. والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدمًا وهو مكشوف من الأعلى مثل كل المشاهد الرومانية، وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس أو عشرة مساجد، عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات وأقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة، وبعضها ما يصلح أن تزدان به أعظم عواصم أوربا الآن.

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها أنها متشابهة في مرافقها إلا قليلًا. ففي كل مدينة ساحة عامة (فوروم) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابتول أو معبد المشتري وجونون ومينرفا (ربة الحكمة والفنون والحرب). وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن أوربا الحديثة. وفيها أسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات قنوات لا تزال ترى إلى اليوم

آثارها. ومراحيض عامة وخاصة. وأماكن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبيوت للتعريق، وقاعات للرياضة والمحادثة ومماش للتنزه، وأفران وأقواس نصر وأبواب تغلق ليلًا ودور تمثيل لا يزال في أكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة.

ومن أهم مصانع الشام عاديات قنوات في جبل حوران وصفها بورثر بقوله: بلغنا أكمة تطل على قنوات فرأينا على اليسار راديًا عميقًا، وعلى جانبه الغربي خرائب المدينة القدمية وسورها يتبع الشواهق مسافة ميل، ثم ينعطف متعرجًا. فيكتنف أرضًا عرضها نصف ميل فيها القصور والهياكل والكنائس والمشاهد وما ماثلها من المباني الفخمة قائمة بعضها بإزاء بعض على نسق بديع يدهش الأبصار. ووراء السور في أسفل الوادي وعلى الجبال المحيطة به في القنن الشاهقة وبين حراج البلوط أعمدة رفيعة، وأبراج مشيدة، ومدافن عالية. واسمها عند اليونان قناتا وسماها العرب قنوات بلغت أوج مجدها على عهد الرومان، وكانت من أعظم المدن شرقي الأردن. وفي عهد النصرانية تنصر أهلها وحولوا هياكلها كنائس؛ لكنها خربت بعد الفتح الإسلامي وقتل سكانها أو هجروها، فلم يُعن المسلمون بجعل كنائسها مساجد كما فعلوا في غيرها من مدن الشام.

ثم ذكر أنه لم ير في مدينة أُخرى من مدن فلسطين ما رآه في هذه المدينة وبينها تماثيل أسود وفهود وكلاب، وفيها رأس عظيم للربة عشتاروت أمام هيكل صغير، وأمام القصر ساحة فسيحة تحتها صهريج كبير سقفه معقود، كانت المياه تجري إليه بقناة منحوتة في جانب الوادي، فيجتمع فيه ما يكفي المدينة فصل الصيف، وغربي المدينة على ربع ميل منها هيكل جميل يحيط به رواق من العمد الكورنثية، وهو قائم على أكمة صناعية وقد سقط أكثره وتصدعت الجدران، وفيها برج مستدير وآثار سور. وفي بطن الوادي مماش مدرجة وفساقي منسقه وكراسي التماثيل

وهيكل صغير وملعب نحتت مقاعده في الصخر، وفوق دكته كتابة يونانية كبيرة الحروف يقال فيها: إن مرقص لوسياس بناه على نفقته ووهبه لأبناء وطنه. ويصعد من هذا الملعب بسلم منحوت في الصخر إلى البرج المستدير، وهو ضخم الحجارة قديم البناء لم يبق منه إلا ما ارتفاعه عشرون قدمًا وعلى مقربة منه بقايا قصر مبني بحجارة كبيرة منحوتة وأغلاق أبوابه وكواه من الحجر كلها وهي كثيرة النقش عليها أكاليل بارزة من الأزهار والأثمار.

ومن أهم الآثار في الشام جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة، ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونية، والثانية القناة الكبرى التي كانت تنقل مياه الجبل إلى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة. ومنها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل أنقا عند منبع نهر إبراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذبيان في سفح جبل صنين. وفي لبنان هياكل رومانية أُخرى كهيكل زيزا وناوس في جهات أميون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة مبعثرة. وفي البترون حصن منيع وملعب وفي بيروت مسرح، ومن قلاعهم قلعة صربا ويحمور. ومن أجمل حماماتهم حمام شهبة الذي يذكر بخرائبه الفخمة كما قال ري بحمامات كاراكالا في رومية، وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية. قال: ولا شك أنها أجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع إقليم حوران.

الهندسة الشامية والكنائس والهياكل

قال أحد علماء الآثار: إن في الشام الوسطى مجالًا واسعًا للأبحاث العلمية ودرس العاديات، فإن فيها ما لا يحصى من الأبنية العادية كالهياكل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والأندية العمومية من

أواخر القرن الأول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد، ولأكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها. وهذه الآثار تتوالى سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سياق متواصل لما وجدت عشرة أعشار من السنين خالية من أثر أو آثار.

وقد عدَّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فامية وتدمر وبعلبك ولدّ وباب جيرون قال: والروم تقول: ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرُّها (أورفة)، ولا من بناء بالخشب أبهى من كنيسة منبج؛ لأنها بطاقات من خشب العناب، ولا بناء بالرخام أبهى من قسيان أنطاكية، ولا بناء بطاقات الحجارة أبهى من كنيسة حمص. وبيعة القسيان في أنطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على أساطين، وكان بدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس، وعلى أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلًا ونهارًا اثنتي عشرة ساعة، وفي أعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تخر منها المياه، وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع. وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة، وهي إحدى عجائب العالم. وكان في مادبا من عمل البلقاء آثار مهمة اكتشفت مثل سوق طوله ١٤٠ مترًا له عمد على الجانبين. ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطرابيلها؛ أي صوامعها. وفي كتاب لبنان أن من الآثار اليونانية البيزنطية في لبنان كنيسة مشنقة، ومعبد ناوس فوق شبطين، ومعبد كفر شليمان، وكنيسة حدثون وكانت مبلطة بالفسيفساء تمثل رسومًا وتصاوير جميلة، ومن الفسيفساء أمثلة جميلة في بعض الكنائس القديمة في لبنان كفسيفساء كنيسة القديس جاورجيوس في سرح، وكنيسة كور القديمة، وما وجد في النبي يونس من دائرة فيها كأس حولها طيور كالطاووس والحجل وبعض الحيوانات الرمزية تاريخها سنة

٥٥٤م. وكان في بيروت عدة كنائس بيزنطية. ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن، قال ابن جبير في القرن السادس: إن لها عند الروم في دمشق شأنًا عظيمًا، وليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. وسنعرض للكلام على بقية الكنائس والأديار في الفصل الخاص بها من هذا السفر.

آثار العرب قبل الإسلام

كان العرب قبل الإسلام يختلفون إلى الشام، وكان النبط -وهم عرب- هم الذين أنشأوا آثار جرش والبتراء، والغسانيون وإليهم تنسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان بن المنذر في السويداء وفي حارب، وبنى جفنةُ أول ملوكها جلق والقرية وعدة مصانع، وبنى ابنه عمرو دير حالي ودير أيوب ودير الدهناء، وبنى ثعلبة بن عمرو عقة وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء، وبنى جبلة بن الحارث من ملوكهم القناطر وأذرح والقسطل، وبنى الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء الحفير في البلقاء، ومصنعه بين دعجان وقصر أبير، وبنى المنذر بن الحارث صربا ورزقا قريبًا من الغدير، وبنى جبلة بن الحارث قصر حارب، وبنى الأيهم ابن الحارث من الأديار دير ضخم دير النبوة وسعف، وبنى عمرو بن الحارث قصر الغضا وصفاة العجلات وقصر منار. وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب عين أباغ، وأصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك لخم خربها.

وحكم التنوخيون شمالي الشام قبل أن يجيئها جيوش العرب بقرون، ولم نعرف للضجاعم والتنوخيين آثارًا تذكر. وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميدع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك. وأقدم أثر عثر عليه العلماء وكتب بالعربية كتابة

عثر عليها في زبد للجنوب الشرقي من حلب، وأُخرى في حران جنوبي دمشق من أعمال اللجاة في حوران؛ الأولى مثلثة اللغات عربية وسريانية ويونانية يرتقي عهدها إلى سنة ٥١٢ ب.م والثانية بالعربية واليونانية تاريخها سنة ٥٦٨ ب.م؛ بيد أن دوسو اكتشف كتابة عربية مكتوبة بالحرف النبطي في حرة وادي السوط على مسافة كيلو متر من النمرة في حوران إلى جنوبها الشرقي، وتاريخ هذه الكتابة سنة ٢٢٣ لبصرى الموافقة لسنة ٣٢٨ للمسيح فتكون هذه أقدم كتابة عربية. وفي الكتابة المذكورة تاريخ وفاة أحد ملوك عرب الشام واسمه امرؤ القيس بن عمرو ملك بني أسد. وزار أحد عمال القياصرة في بادية الشام هذه الكتابة وأولها: «تي نفس (هذا قبر) امرء القيس بر (بن) عمرو ملك العرب كله ذو (الذي) أسر التاج وملك الأسدين ونزار وملوكهم ... إلخ». ونسب دوسو عدة أبنية في سيف البادية إلى الغسانيين.

ولقد أخطأ كلرمون غانو في قوله: ليست المدنية العربية إلا كلمة خداعة لا وجود لها أكثر من فظائع الفتح العربي، وإن المدنية العربية آخر أنوار المدنية اليونانية والرومانية طفئت بأيدٍ خرقاء ولكنها محترمة وهي الإسلام. ليست الحضارة ثمرة جيل بذاته ولا هي مما يرتجل ارتجالًا كالإرث لا يكون ابن يومه بل هو عبارة عن مجموع إرثي من القوى الحية. هو كنز من التوفير أتت عليه مئات من السنين قد يستطيع أحد اللصوص أن يضع يده عليه ويبذر فيه يومًا، ولكن حياته بأسرها لا تكفي للإيجاد، فقد احترمت هاته الأمة الحديثة النعمة ما وجدته من الإدارات والمعارف والفنون، على حين لم يكن وراءها ماضٍ تعتز به، واقتصرت أن تحول كل شيء إلى منفعتها، وبلغ بها الحال أيضًا أن جعلت لدي مسيس الحاجة امتيازات للقائمين على احتكار هذه الفضائل العقلية، وهي امتيازات جادت بها، ونار التعصب يحرقها، فتساهلت معها تساهلًا دينيًا

عجيبًا اهـ. نعم أخطأ في حكمه على العرب وهم ما خربوا العاديات ولكنهم لم يتوفروا على ترميمها بعد أن كان للعرب من البنيان قصر غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب والأبلق الفرد وقصر المشتى والفدين وغيرها من المصانع والقصور التي سنعرض لها في هذا البحث كيف يسلبهم كلرمون غانو إبداعهم المجمع عليه.

قصور العرب في الإسلام

تخلى جمهور من الروم في دمشق عن دورهم في الفتح ولحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون، ثم أخذوا في كل بلد ينزلونه يرمون ما عور من بنائه، وربما بنوا بالمدراي باللبن والطين أولًا، ثم عادوا إلى استعمال الحجر؛ فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه أن سعدًا وأصحابه بنوا بالمدر كتب: أكره لكم البنيان بالمدر، فأما إذا فعلتم فعرضوا الحيطان، وأطيلوا السمك، وقاربوا بين الخشب. وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في أنحاء المدينة مثل دار أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وأبي العزيز الأزدي ووابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن أسيد والنعمان بن بشير الأنصاري وواثلة بن أسقع وهبار بن الأسود وعمرو بن العاص وأوس بن أوس ويزيد ابن نبيشة وعبد الله بن عامر إلى أمثالهم. ولا نعرف إلا مكان دار أبي عبيدة، وكان في محلة حجر الذهب؛ أي المحلة التي تعرف اليوم بالبيمارستان، وكانت أجمل حيّ في دمشق.

وكان معاوية يقيم أحيانًا في غوطة دمشق وينصب الأبنية والأروقة والفساطيط، وزعم اليعقوبي أن معاوية كان أول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر أحد قبله. ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء، لقبة خضراء بناها عليها عرفت الدار بها، وذلك قبلي

الجامع الأموي، دخلها وفد الروم فقالوا: ما أحسن ما بناها للعصافير، وفي رواية أما أعلاها فللعصافير وأما أسفلها فللنار، فهدمها وبناها بالحجر. والغالب أنها ظلت عامرة إلى القرن الخامس وفيها دار الإمارة. واحترقت سنة (٤٦١) وبادت على ما نقل البرزالي. وقرأ المقدسي في بعض الكتب أن ما أُنفق على الخضراء ثمانية عشر حمل بغل ذهب. ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء، وهي دار الإمارة بدمشق فاشتراها بأربعين ألف دينار، واشترى منه أربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهنَّ فاختار من فلسطين عمواس، ومن الأردن قصر خالد، ومن دمشق الأندر، ومن حمص دير زكا.

وبنى الأمويون بعده بيوتًا لهم كانت بجوار الجامع ومنها دار عمر بن عبد العزيز مكان المدرسة السميساطية الآن، ودار هشام مكان تربة نور الدين، وقصر سليمان بن عبد الملك، مكان سقاية جيرون، ودار مسلمة بن هشام بباب البريد. قال الذهبي: بنى سليمان بن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز. وكان لعاتكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق. وقال ابن عساكر: كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي. وقصر حجاج منسوب إلى الحجاج بن عبد الملك بن مروان. وقال ابن شاكر: وكان قبله أيضًا معروفًا بالحجاجية ملكًا للحجاج بن يوسف الثقفي، فلما ولد لعبد الملك بن مروان ابنه الحجاج المذكور، وكانت أمه بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي سمته باسم عمها الحجاج؛ فنحله الأرض المذكورة وبنى له القصر فعرف به ونسب إليه. وقال آخر: إنَّ الحجاج بن يوسف وهب للحجاج بن عبد الملك دارًا بدمشق تعرف بدار الحجاج. واسم قصر الحجاج ما زال يدور على الألسن إلى اليوم دون القصر الذي دثر.

وقد بنى الأمويون قصورًا لهم في الغوطة، وكانوا يملكون جانبًا عظيمًا منها ولكن لم يظهر لها أثر ولا خبر. قال ابن حزم: وكانت دولة بني مروان على علاتها دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم إنما كان سكناهم كل أمير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة. ومن قصور الأمويين في حمص قصر خالد بن يزيد بن معاوية، جدده في زمن العباسيين عامل تلك المدينة الفضل بن قارن الطبري، وتحصن به لما وثب به أهلها.

عناية الأمويين وتفننهم

وفي أيام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تتكلم في البنايات والعمائر لزيادة رغبتهم في البناء، فبنت الناس المجالس الحسان؛ وذلك لأن الخليفة كان يرغب في البنايات وإتقان المصانع، وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم، والناس على دين ملوكهم. قال أحد المؤرخين: وكان الوليد عند أهل الشام محبوبًا؛ لأنه صاحب عمارة وبناء، عمر الضياع ووضع المنار في الطرقات، وأعطى المجذمين وأفردهم، وقال: لا تسألوا وأخدم كل مقعد خادمًا، وأعطى كل ضرير قائدًا، وكتب إلى جميع البلاد بهدم المساجد والزيادة فيها، وتسهيل الطرق وحفر الأنهار، وأن تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها المرضى، وهو أول من فعل ذلك، وهو أول من أجرى على القراء وقوام المساجد الأرزاق.

قال ابن أبي عيلة: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد؛ افتتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق، وكان يعطيني قصاع الفضة أقسمها على قراء (فقراء) مسجد بيت المقدس. وعدَّ المقدسي من أمصار المسلمين في الشام أو من المدن التي عمرها المسلمون، وبعبارة أخرى الأمويون ثم العباسيون على قلة: أنطاكية، بالس، المعرتين، منبج، قنسرين، سلمية،

تدمر، اللاذقية، جبلة، جبيل، انطرسوس، بانياس، اللجون، جوسية، حماة، شيزر، وادي بطنان، داريا، بانياس، صيدا، بيروت، عرقة، طرابلس، الزبداني، كامد، عرجموش، بيسان، أذرعات، قدس، كابل، عكا، صور، الفراذية، بيت جبريل، غزة، عسقلان، يافا، أرسوف، قيسارية، نابلس، أريحا، عمان، ديلة، عينون، مدين، أذرح، مآب، معان.

الجامع الأموي والمسجد الأقصى

ومن أهم الآثار التي تنم عن ذوق عربي في هذه الديار الجامع الأموي، وقد جرى ترميمه في أوقات مختلفة، والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم يدل على ما كان هناك من ذوق سليم، ويد صناع. وهندسة الجامع الأموي والمسجد الأقصى مقتبسة من الهندسة اليونانية وممزوجة بأشياء إسلامية.

بعث ملك الروم إلى الوليد كثيرًا من البنائين والمقدرين؛ أي المهندسين مع ما بعث إليه من المفصص؛ أي الفسيفساء والذهب. قال المقدسي: إن الوليد جمع لبناء الجامع الأموي حُذاق فارس والهند والمغرب والروم. وروى ابن شداد: أن الوليد اقتلع من كنيسة أنطاكية عمدًا عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر إلى ساحلها. ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ أن نقول: إنه جمع أجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية. أما طرز البناء فالغالب أن بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعة أو معبدًا للصائبة. ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ أوسابيوس: إنها ذات أفنية وأواوين وفساقي ومساكن للقسس.

ولقد بلغ من تفنن الوليد بزخرفة الجامع الأموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه، ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير: إن

أرض الجامع الأموي كانت مفصصة كلها، وإن الرخام كان في جدرانه إلى قامات، وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض وسقفه مقرنص بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة. وقد أنفق فيه خراج الشام سنتين، وفي رواية أربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار. وكان خراج الشام على عهد بني أمية ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار. وذكر بعضهم أن الوليد أخذ ربع أعطيات أهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة وأربعين ألفًا يستعين بها على عمارة جامع دمشق. قال المقدسي: والجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين اليوم، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه، ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة إلى أختها، ولو أن رجلًا من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد كل يوم صنعة.

دخل المأمون مرة جامع دمشق ومعه أخوه المعتصم ويحيى بن أكثم، فازدادوا عجبًا قال المأمون لهما: أي شيء يعجبكما من هذا المسجد؟ فقال المعتصم: ذهبه؛ فإنا نضعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول، وهذا بحاله مع طول الزمن، كأن الصانع فرغ منه الآن. فقال المأمون: ما أعجبني هذا. فقال يحيى بن أكثم: الذي أعجب أمير المؤمنين تأليف زخارفه؛ فإن فيه عقودًا ما يرى مثلها. فقال المأمون: كلا؛ بل أعجبني أنه بني على غير مثال شوهد.

كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على أن المسجد الأقصى أحسن من جامع دمشق. عمَّر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على أُسلوب جميل لم يسبق إليه. قال بعضهم: إن شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية، ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستنيانس وبنى موضعها المسجد الأقصى، وتنوق في تنميقه وأكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا: إن أساس المسجد الأقصى

من عمل داود وهو على غاية الحسن والإحكام كما قال ياقوت: مبني على الأعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منه لا جامع دمشق ولا غيره. وروى ابن العديم أن جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء، وأن سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق. وكان سليمان بن عبد الملك يسكن الرملة قبل الخلافة عَمَّرها وبنى مسجدها الجامع وخرَّب له جارتها.

تاريخ الحرم القدسي

شيد المسجد الأقصى وقبة الصخرة في مكان تل موريا، وهي منزلة دينية سامية قدسها الوثنيون واليهود والمسيحيون والمسلمون، وربما كانت بيدرًا لأحد اليبوسيين سكان فلسطين القدماء، وقد بنى فوقها داود بعد فتحه المدينة مذبحًا تقدم فيه القرابين. وأمر سليمان سنة (١٠١٣ ق.م) بإنشاء قصر له مكان المسجد الأقصى وهيكل فخم حيث قبة الصخرة. وقد دمره الكلدانيون سنة (٥٨٨ ق.م) وفي السنة العشرين قبل الميلاد شرع هيرودس الكبير بإقامة هيكل وبرج عال في المكان نفسه ولم يتمه، ودمره جنود الرومان سنة ٧٠ لما استولى طيطوس على بيت المقدس. وبنى الإمبراطور أدريانوس سنة ١٣٠م مدينة إيلياء وأمر بتشييد زون كبير للمشتري إله الحرب اثنا عشري الشكل (Dodecastyle) فنصب فيه صنمًا للمشتري وآخر لديوسقورس أو صنم التوأمين (كاستور وبلوكس) وأقام تمثالًا لنفسه بالقرب من الصخرة المباركة. وقضى الفرس على بيت المقدس لما اكتسحوها سنة (٦١٤).

ولما وافى عمر بن الخطاب القدس ذهب توًّا إلى مكان الحرم الشريف وأزال ما كان فيه من الأقذار، ولما أفضت الخلافة إلى عبد

الملك بن مروان وحيل بينه وبين الحرمين الشريفين؛ لقيام عبد الله بن الزبير خليفة في الحجاز أمر بإنشاء المسجد الأقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس ورصد لذلك خراج مصر سبع سنين ففرغ في سنة (٧٢هـ) وكتب اسمه منقوشًا بالفسيفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي «بنى هذه القبة عبد الملك ... أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين، تقبل الله منه ورضي الله عنه آمين». أما الكتابة الأثرية فهي على المثمنات ١: بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. بنى هذه القبة المباركة. ٢: عبد الله عبد [الله الإمام المأمو]ن أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي الله عنه آمين. والكلمات الثلاث الموضوعة ضمن قوسين هي بخط أصغر ونقش أغبر هي كانت ولا شك [الملك بن مروا] وقد أبدلتها يد صناع. أما الذي تولى عمارة القبة سنة ٢١٦هـ من قبل المأمون فهو صالح بن يحيى ولكنهم نسوا أن يرفعوا التاريخ الأصلي لبناء القبة وهو سنة ٧٢. وسقط شرقي المسجد وغربيه سنة ١٣٠ بالزلازل وكذلك في سنة ١٥٨ فجدد في سنة ١٦٩ في خلافة المهدي، وقد أُنقص من طوله وزيد في عرضه، وجدد عمارة قبة الصخرة في أيام المأمون (٢١٦) وزلزلت الأرض ثالثة (٤٠٧) فتهدمت قبة الصخرة وبعض الجدران، فجددها الظاهر الفاطمي (٤١٣هـ) وزيد فيه في زمن الفاطميين البناء المسمى بجامع النساء، وكان في مسجد بيت المقدس ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة سبعون ذراعًا. ولما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة، والمسجد الأقصى إلى منزل لسكنى ملكهم. ولما استعاده صلاح الدين أعاد الحرم إلى ما كان عليه وأمر بترميم محراب الأقصى وكتب عليه بالفصوص المذهبة ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر

الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة».

وفي سنة (٦٣٤) عمر في المسجد الملك المعظم عيسى. وفي سنة (٦٦٨) رمَّ المسجد والصخرة الظاهر بيبرس. وفي سنة (٦٨٦) عمر فيه المنصور قلاوون ورم فيه كتبغا المنصور لاجين والناصر قلاوون في سلطنته الثالثة وفي أيامه عمر فيه أيضًا الأمير تنكز الناصري، ثم جدد الأشرف شعبان (٧٦٩) والظاهر برقوق (٧٨٩) والظاهر جقمق العلائي، وفي سنة (٨٧٧) جدد فيه الأشراف أبو النصر. وفي أيام العثمانيين تمت في الحرم عدة عمارات منها ما جدده سليمان القانوني سنة (٩٦٩) ومنها ما جدد في سني ١٢٣٢ و١٢٥٦ و١٢٩١ وبعدها.

المسجد الأقصى اليوم

هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ووقع الحرم على مساحة مربعة طول الجهة الغربية منها ٤٩٠ مترًا والشرقية ٤٧٤ مترًا والشمالية ٣٢١ مترًا والجنوبية ٢٨٣ مترًا يحيط به سور يختلف ارتفاعه بين ٣٠ مترًا و٤٠. ويبلغ طول بعض الحجارة فيه خمسة أمتار طولًا في أربعة أمتار عرضًا. وحول السور من جهة الغرب والشمال أروقة فسيحة معقودة يتخللها بعض أبواب الحرم وهي ١٤ بابًا. وقد قام جامع الصخرة الشريفة في فناء مربع مفروش بالبلاط النحيت طوله من القبلة إلى الشمال أكثر من عرضه من المشرق إلى المغرب، وارتفاعه ثلاثة أمتار يصعد إليه بأدراج من الجهات الأربع، وعقد على كل درج من أعلاه قناطر هيفاء دعمتها عمد من الرخام. والقبة على بناء فخم مثمن الشكل، ذرع كل ثمينة منه ٢٩ ذراعًا وثلث ذراع (٤٠/م ٢٠). وقد كسي القسم السفلي من

ظاهر بالرخام الأبيض المشجر، والقاشاني البديع الذي يترقرق فيه ماء الألوان المتزاوجة، ومن لازوردي صاف وأخضر قاتم وأبيض ناصع، يعلو ذلك شبه افريز رسمت عليه آي القرآن. وضع هذا القاشاني في أيام سليمان القانوني سنة (٩٦٩هـ) وتحتوي كل تثمينة من البناء على سبع طاقات للتي لا باب فيها وعلى ست للتي لها باب. والطاقات المحاذية لأطراف التثمينات مسدودة كلها، والأخرى مركب عليها الزجاج والشبابيك الحديد. ولجامع الصخرة أربعة أبواب مزدوجة داخلًا وخارجًا مربعة الشكل بعقود مقوسة، وأمام الباب الأخير من الخارج رواق مفروش بالرخام عليه سقف مكسو بالقاشاني في وسطه قنطرة معقودة والسقف محمول على ثمانية أعمدة من الرخام مختلفات في النوع واللون، وللباب المذكور مصراعان ملبسان بالنحاس الأصفر المنقوش، عليها أقفال نفيسة متقنة الوضع.

ويبلغ دور البناء من الداخل ٥٣ مترًا وهو مقسم إلى ثلاثة دوائر يفصل بعضها عن بعض صفان مستديران من الأعمدة والأركان يتألف الأول منها من ثماني سوار مسدسة الأضلاع و١٦ عمودًا منها «أبيض وأزرق» عشرة و«أخضر مرسيني» ثلاثة و«شحم لحم» ثلاثة، والصف الثاني مؤلف من أربع سوار مربعة الأضلاع واثني عشر عمودًا منها سبعة «أخضر مرسيني» وخمسة «شحم لحم». والسواري ملبسة بالرخام المشجر والملون البديع، والأعمدة قديمة جدًّا وأكثر تيجانها تدل على أنها من الطراز الروماني أو البيزنطي القديم، ويربط أعمدة الصف الأول بعضها ببعض وبالسواري بساتل ملبسة بالنحاس الأصفر المنقوش المذهب. وتحمل هذه الأعمدة مع جدار الجامع سقفًا مائلًا بعض الميل مدهونًا بأنواع الدهان قائمًا على قناطر مرصعة بالفص المذهب متصلًا طرفه الأعلى بكرسي القبة. ويزين باطن القبة مجموعة لا نظير لها من

الفصوص الملونة تمثل ٦٤ شكلًا من الزخارف على نحو ما كان يصنعه فنانو البيزنطيين، وهي مركبة على سطح موشى بالذهب وفي كرسي القبة ست عشرة طاقة زجاج مذهبة يعلو كلًا منها طبقة من الجبس، مقسمة عيونًا مغطاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان والأشكال، تنفذ منها أشعة الشمس صافية، ملطفة بفضل ألواح الزجاج الخارجية والمشبكات المصنوعة من القاشاني، وعلى هذه الطاقات نقوش تدل على أنها صنعت في زمن السلطان سليمان سنة (٩٤٥)هـ، كما أن المرمر الذي يكسوها ركب في زمن السلطان صلاح الدين وجدد في أيام سليمان القانوني.

والصخرة الشريفة قائمة على درابزين من خشب منقوش مدهون بأنواع الأصباغ طولها ١٧.٧٠ مترًا وعرضها ١٣.٥٠ مترًا، ويبلغ ارتفاعها عن الأرض نحو ١.٢٥ متر إلى مترين، وينزل إلى المغارة التي تحتها بإحدى عشرة درجة من جهة القبلة، وعند باب المغارة قنطرة معقودة بالرخام العجيب على عمودين وبباطنها محرابان؛ كل محراب على عمودي رخام لطيفين، وأمام المحراب الأيمن صُفة تسمى مقام الخضر يواجهها عمود رخام قائم للسقف وآخر راقد، وفي الركن الشمالي منها صُفة تسمى باب الخليل، وجميع باطن أرض الصخرة والمغارة مفروش بالرخام، وفي وسط المغارة بلاطة مستديرة ينبعث عنها إذا نقر عليها رنين تتجاوب أصداؤه مما يدل على خلو ما تحتها. وحول الدرابزين الخشب مصلى للنساء وهو محاط بالقضب الحديدية من جميع جهاته، وله أبواب أربعة لا يفتح منها عادة إلا الباب الغربي الموازي لباب النساء، وهو من عمل الصليبيين إبان احتلالهم بيت المقدس.

صفة المسجد الأقصى

يقع المسجد الأقصى جنوبي جامع الصخرة وطوله ٨٠ مترًا وعرضه ٥٥ مترًا عدا ما أُضيف إليه من الأبنية، وأول ما يقابلك من هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة (٦٣٤)هـ وجدد من بعده وهو مؤلف من سبع قناطر عقدت على ممشى ينتهي إلى سبعة أبواب، كل باب يؤدي إلى كور من أكوار المسجد السبعة. وللمسجد عشرة أبواب والبناء قائم على خمسة وأربعين عمودًا. والغالب أن هذه الأعمدة قديمة نقلت من أنقاض أبنية متنوعة أقدم عهدًا من الحرم. وفوق الأعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة، وفوق القناطر صفان من الطاقات، ويتألف باطن السقف من عوارض كلها من الخشب. وعدة ما في المسجد من السواري أربعون، وهي ضخمة مربعة الشكل مبنية بالحجارة. وبأقصى الباب من جهة الجنوب قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة. وهي مما رممه صلاح الدين (٥٨٤هـ) كما رمَّ أكبر جناحي المسجد، والقبة والجناح على الغالب إنما صنعا في خلافة المهدي بعد تهدم المسجد بفعل الزلازل، وهي كقبة الصخرة من خشب مكسوة بصفائح الرصاص من ظاهرها وبالفص المذهب من باطنها، ومجدد هذه التزيينات هو الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٨)هـ وهناك آيات قرآنية كتبت بخط كوفي على جانبي المحراب، والمحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر وبجانبه المنبر؛ وهو من الخشب المرصع بالعاج والآبنوس عمل في عصر نور الدين زنكي، ويقابل المنبر دكة المؤذنين وهي على عمد من رخام.

ومن داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء أو الجامع الأبيض، وهو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوار في غاية الإحكام بناه الفاطميون، ومن جهة الشرق جامع عمر وهو معقود بالحجر والجير، سمي بذلك لأنه بقية من الجامع الذي بناه عمر رضي الله عنه حين الفتح. وإلى جانب هذا البناء إيوان كبير معقود يسمى مقام عزير، وبه باب يتوصل منه إلى جامع عمر، وبجوار هذا الإيوان من الشمال إيوان لطيف به محراب يسمى محراب زكريا وهو بجوار الباب الشرقي. وفي صحن المسجد الأقصى شمالًا بركة مستديرة من رخام سورت بالقصب الحديدية يقال لها الكأس، يأتيها الماء بأنابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجيع المسماة ببرك سليمان أهمها عين عطاب ووادي الآبار.

ومن الآثار المهمة في الحرم البناء السفلي المعقود بالحجر معروف عند الإفرنج بإصطبل سليمان، وهو عبارة عن مهد عيسى ومحراب مريم والعقود الواسعة التي يقوم عليها المسجد الأقصى. وكذا البراق الشريف وهو في السور الغربي وجامع المغاربة والمدرسة النحوية المعظمية، وفيها اليوم دار كتب المسجد الأقصى وهي من أبنية الملك المعظم (٦٠٤هـ) ومنبر القاضي برهان الدين بن جماعة ومحرابه. وقبة السلسلة وهي شرقي قبة الصخرة وعلى شكلها صنعت في أيام عبد الملك بن مروان، وقبة المعراج سنة (٥٩٧)هـ، وسبيل قايتباي (٨٨٧هـ) وما يحيط بالحرم من المدارس القديمة.

هذا حاضر المسجد الأقصى وما إليه، وقد أثرت فيه عوامل الطبيعة كالمطر والشمس والثلج والأعاصير الشديدة فنقبت ما يكنها من صفائح الرصاص، ونخرت ما قامت عليه من الأخشاب منذ زمن بعيد، فبادر المجلس الإسلامي الأعلى إلى الكشف عن البناء؛ فتبين أنه يحتاج إلى

مائة وخمسين ألف جنيه على أقل تعديل. وألفت لجنة لعمارته برئاسة المعماري كمال الدين واستصرخ الأمم الإسلامية لمعاونته فجمع زهاء ثمانين ألف جنيه، وشرع حالًا بما كان أحكم بناؤه من حجر منقوش أو مرمر مسنون أو خزف مصقول أو خشب منجور أو صفر مطلي بالفضة أو مكسو بالتبر، أو فص مذهب مزين ملون مشجر مزهر مرصع موشى منمق، ويوشك بفضل الله أن يعود إلى ما كان له من بهجة في الأعصار السالفة.

وصف المقدسي للمسجد الأقصى في القرن الرابع

وصف المقدسي المسجد الأقصى فقال: هو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود، طول الحجر عشرة أذرع وأقل، منقوشة موجهة مؤلفة صلبة، وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان، وكان أحسن من جامع دمشق، لكن جاءت زلزلة في زمن بني العباس فطرحت المغطى إلا ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة خبره قيل له: لا يفي برده إلى ما كان بيت مال المسلمين، فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القواد أن يبني كل واحد منهم رواقًا، فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان، وبقيت تلك القطعة شامة فيه وهي إلى حد أعمدة الرخام، وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث، وللمغطى ستة وعشرون بابًا؛ باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الأعظم مصفح بالصفر المذهب، لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوي الذراع، عن يمينه سبعة أبواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب وعلى اليسار مثلهن، ومن نحو الشرق أحد عشر بابًا سواذج، وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام أحدثه عبد الله بن طاهر، وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين، وعلى المؤخر أروقة آزاج من الحجارة، وعلى وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنة والسقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق

الرصاص والمؤخر مرصوف بالفسيفسار الكبار والصحن كله مبلط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد إليها من الأربعة جوانب في مراق واسعة، وفي الدكة أربع قباب: قبة السلسلة، قبة المعراج، قبة النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان، وفي الوسط قبة الصخرة على بيت مثمن بأربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة باب القبلي، باب إسرافيل، باب الصور، باب النساء، يفتتح إلى الغرب جميعها مذهبة في وجه كل واحد باب ظريف من خشب التنوب مداخل حسن، أمرت بهن أمُّ المقتدر بالله. وعلى كل باب صُفة مرخمة بالتنوبية تطبق على الصفرية من خارج. وعلى أبواب الصفاف أبواب أيضًا سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة أجل من الرخام وأحسن لا نظير لها قد عقدت عليها أروقة لا طية، داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة، لا مثمن على أعمدة معجونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقان كبار، والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامة وبسطة. والقبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب، وأرض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق. والقبة ثلاث سافات: الأولى من ألواح مزوقة، والثانية على أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح، ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح وفي وسطها طريق إلى عند السفود يصعدها الصناع لتفقدها ورمها، فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت المنطقة ورأيت شيئًا عجيبًا. وعلى الجملة لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرك مثل هذه القبة، ويدخل إلى المسجد من ثلاثة عشر موضعًا بعشرين بابًا اهـ.

أصل الجامع الأموي

كان الجامع الأموي على ما ذكر المؤرخون معبدًا قبل الإسلام، قال البيروني: إن من آثار الصابئة القبة التي فوق المحراب عند المقصورة، وكان مصلاهم أيام كان اليونانيون والروم على دينهم، ثم صار في أيدي اليهود فعملوه كنيستهم، ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة إلى أن جاء الإسلام وأهله فاتخذوها مسجدًا. وقال البرزالي: وبنى اليونان والكلدان هذا المعبد، وكانوا يصلون إلى جهة القطب الشمالي وكانت محاريبه تجاه الشمال وبابه يفتح إلى جهة القبلة خلف المحراب، وهو باب حسن عن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه، وكان غربي المعبد قصر منيف جدًّا تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد وغربيه قصر جيرون، داران يكونان لمن يتملك دمشق قديمًا فهو أقدم معبد.

وقال شيخ الربوة: إن له نحو أربعة آلاف سنة وهو معبد. ولما فتح المسلمون دمشق أخذوا من النصارى النصف الشرقي من هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة ماريوحنا، وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الأصلي في القبلة، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب والمسلمون إلى الشرق. وكان لا يستطيع أهل الإنجيل أن يجهروا في قراءته بكنائسهم ولا يضربوا بناقوسهم إجلالًا للصحابة، فلما أخذت أصواتهم ترفع في صلواتهم أحب الوليد أن يبعدهم عن المسلمين فعوضهم عنه أربع كنائس أخرى. وقيل: إنه بذل للنصارى فيه أربعين ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوها، فأخذها كما قال ابن العميد. واحتاج الوليد إلى صناع كثيرة فوجه إليه ملك الروم بمائتي صانع.

وحكى الجاحظ في كتاب البلدان أنه كان مبنيًا على الأعمدة الرخام طبقتين: الطبقة التحتانية أعمدة كبار، والتي فوقها صغار، في خلال ذلك

صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء الذهب والأخضر والأصفر، وفي قبليه القبة المعروفة بقبة النسر ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظرًا منها، ولها ثلاث منائر إحداها وهي الكبرى كانت ديدبانا للروم وأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة. وروى البرزالي أنه كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ست وثمانين وتكامل في عشر سنين. وكان الفراغ منه سنة ست وتسعين وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك وقد بقيت فيه بقايا من الزخرفة، فكملها أخوه سليمان بن عبد الملك وجددت فيه أشياء أُخر، فمن ذلك القبة الغربية التي في صحنه ويسميها الناس قبة عائشة، وغالب ظني أنها بنيت في سنة ستين ومائة في أيام المهدي، واما القبة الشرقية التي في صحنه تجاه مشهد علي بن الحسين فعمرت في أيام المستنصر العبيدي في سنة خمس وأربعمائة وكتب عليها اسمه واسم الأئمة الاثني عشر.

وذكر ابن جبير أن طول الجامع من الغرب إلى الشرق مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة إلى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق إلى المغرب، سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عمودًا منها أربع وخمسون سارية؛ ثمانية أرجل جصية تتخللها واثنتان مرخمة ملصقة معها بجدار الذي يلي الصخرة، وأربعة أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، وقد نظمت خواتيم، وصورت محاريب، وأشكالًا غريبة، قائمة في البلاط ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته سعته عشر خطًا، وعدد قوائمه سبع وأربعون منها أربعة عشر رجلًا والباقي سوار. وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص وأعظم ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وهي سامية في الهواء عظيمة الاستدارة،

وقد استقل بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب إلى الصحن والقبة، وقد أغصت الهواء فإذا استقبلتها رأيت مرأى هائلًا.

وذكر الباحثون من الفرنج أن طول الحرم الأصلي من الشرق إلى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١٠٠٠؛ فهو ربع مساحة دمشق كلها. وكان أمام جدرانه الأربعة من الداخل صف من الأعمدة على دائرة كشف علماء الآثار بعضها، والجامع في وسط هذا الحرم قائم على أسس الكنيسة التي كانت قبله، وهي قائمة على أُسس الهيكل الذي كان قبلها أو على بعضها، والجدار الغربي من الجامع قديم كله، ما عدا باب البريد في وسطه فإنه من زمن العرب، وفي الجدار الجنوبي أنواع البناء كلها ففيه جانب من البناء الشامي اليوناني، وجانب من البناء المسيحي في عهد ثيودوسيوس وأركاديوس من القرن الرابع والخامس للميلاد، وجانب من البناء العربي من زمن الوليد في القرن الثامن، وتجديدات أُخرى بعدما احترق في قرون متعددة.

وقال ابن حوقل: إنَّ الوليد جعل أرض الجامع رخامًا مفروشًا، وجعل وجه جدرانه رخامًا مجزعًا وأساطينه رخامًا موشى ومعاقد رءوس أساطينه ذهبًا ومحرابه مذهب. الجملة مرصعًا بالجواهر ودور السقف كله ذهبًا مكتوبًا عليه كما يطوف بترابيع جدار المسجد، وإذا أرادوا غسل سقفه بثق الماء إليه فدار على رقعة المسجد بأجمعه حتى إذا فجر منه انبسط عنه وعن جميع الأركان بالسوية. وأبوابه الأربعة كانت أبواب الكنيسة فبقيت على حالها وفيه ثلاث مقاصير: مقصورة معاوية أحدثها سنة ٤٤، لما وثب عليه بعضهم ليقتله، كان في جدار الصحن القبلي من الجامع حجر مدور على ما روى القزويني شبه درقة منقطة بأبيض وأحمر بذل الفرنج أموالًا فلم يجابوا إليه. وقد كان عزم عمر بن عبد العزيز أن يعمد إلى ما في الجامع من الفسيفساء وهو النقش المفصص والرخام فيقلعه وينتزع

السلاسل الذهبية، وكانت ستمائة سلسلة ويجعل مكانها حبالًا وينزع غيرها من ضروب الزينة ويبيعها ويجعلها في بيت المال، فأرجعه أهل دمشق عن فكره، وذكروا له ما قام به أهل الشام من بنائه على هذه الصورة.

ووصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الأموي فقال: إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغريبة وهياكلها الهائلة البنيان قال: إنها مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة، وتجتمع الأضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها، وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالًا عجيبًا، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين، بديعة القرنصة، وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة، لا تنقلها الفيلة فضلًا عن غيرها، فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة اهـ.

ولنابغة بني شيبان من قصيدة يصف فيها بدائع هذا الجامع في القرن الأول وهي في مدح الوليد بانيه:

قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا ... فصخرها عن جديد الأرض منسوف

كانت إذا قام أهل الدين فابتهلوا ... باتت تجاوبنا فيها الأساقيف

أصوات عُجم إذا قاموا بقريتهم ... كما تصوت في الصبح الخطاطيف

فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة ... وصادق من كتاب الله معروف

فيه الزبرجد والياقوت مؤتلق ... والكلس والذهب العقيان مرصوف

ترى تهاويلهم من نحو قبلتنا ... يلوح فيه من الألوان تفويف

يكـاد يُعشي بـصير القـوم زبرجـه ... حتـى كـأن سـواد العـين مطـروف
وفـضة تُعجـب الـرائين بهجتُهـا ... كريمهـا فـوق أعلاهـنَّ معطـوف
وقبـة لا تكـاد الطيـر تبلغهـا ... أعلـى محاريبهـا بالـساج مـسقوف
لهـا مـصابيح فيهـا الزيـت مـن ذهـب ... يـضيء مـن نورهـا (لبنـان) و(الـسيف)
فكـل إقبالـه -والله زينـه- ... مـبطن برخـام (الـشام) محفـوف
فـي سـرة الأرض مـشدود جوانبـه ... وقـد أحـاط بهـا الأنهـار والريـف
فيـه المثـاني وآيـات مفـصلة ... فـيهنَّ مـن ربنـا وعـد وتخويـف

ومن أجمل ما وصف به جامع دمشق قول ابن منقذ الكناني من قصيدة:

وكـأن جامعهـا البـديع بنـاؤه ... ملـك يميـر مـن المـساجد جحفـلا
ذو قبـة رفعـت فـضاهت قلـة ... ومنـابر بينـت فحاكـت معقـلا
تبـدو الأهلـة فـي أعاليهـا كمـا ... يبـدو الهـلال تعاليًـا وتهلـلا
ويريـك سـقفًا بالرصـاص مـدثرًا ... يعلـو جـدارًا بالرخـام مـزملا
قـد ألـف الأقـوام بـين شـكوله ... فغـدا الرخـام بذاتـه متـشكلا
لـم يـرض تجليـلًا بجـص فـانبرى ... بـالفص يعلـو والنـضار مجلـلا
يغـشى سـوام اللحـظ فـي أرجائـه ... مـن عـسجد أرضًـا ومـن فـص خـلا
فـإذا تـذر الـشمس منـه تخالـه ... يلقًـا تـألق أو حريقًـا مـشعلا
فكأنمـا محرابـه مـن سـندس ... أو لؤلـؤ وزمـرد قـد فـصلا
وتخـال طاقـات الزجـاج إذا بـدت ... منـه للحظـك عبقريًـا مـسدلا
تبـدو القبـاب بـصحنه لـك مثلمـا ... تبـدو العـرائس بـالحليّ لتجتلـى
وعلـت بـه فـوارة مـن فـضة ... سـالت فظنوهـا معينًـا سلـسلا

ويبابـــه حركـــات ســـاعات إذا فتحـــت لهـــا بـــاب تراجـــع مقفـــلا
ويريـــك باريهـــا وكـــل قـــد رمـــى مـــن فيـــه يقذفـــه يـــصيب ســـجنجلا

وظل الجامع بجاله بهجة النظار السفار، ومفخر دمشق على غابر الأعصار، والملوك حتى من العباسيين يرمون فيه إلى أن التهمة الحريق الأول سنة (٤٦١هـ) فذهبت محاسنه، وذلك في حرب المصريين المغاربة؛ أي الفاطميين مع العراقيين فأحرقوا دارًا مجاورة للجامع فتعلقت النيران به فدثرت محاسنه، وتشوه منظره واحترقت سقوفه المبطنة بالذهب وفصوصه، وسقطت القبة كما قال الذهبي فأعيدت إلى ما كانت، واحترق ثانية سنة ٧٤٠ وكان الأصل فيه كما قال ابن مفلح من النصارى بدمشق، واشتهر ذلك عنهم، وكتب عليهم محضر به، ونقضت مأذنة عيسى وجددت من أموالهم لكونهم اتهموا بحريقها بإقرار بعضهم. وهذا الحريق عمَّ جميع الجامع وما حوله من الأسواق. وفي سنة (٧٥٣) كان ثالث حريق؛ وذلك أنه وقع حريق عند باب جيرون فاتصل بالباب بالنحاس الأصفر فنزعوه وكسروا خشبه وكان من نحاس دمشق ومعاملها. وكان في سنة (٧٩٥) حريق سوق الدهستان وسوق الورافين والساعات ونصف المعزية من شرقي الجامع، ثم أُعيد إلى ما كان عليه. ورابع حريق كان في سنة (٨٠٣) عند حضور تيمور وحرقت خزانة المصاحف والكتب فأعيد سنة (٨٠٥) إلى قريب ما كان عليه، وخامس حريق كان سنة (٨٨٤).

وأُصيب بالزلازل مرات وتعطلت جوانبه وتداعت بعض سقوفه، ومنها زلزلة سنة (٥٩٧) فرمي بعض المنارة الشرقية وسقط ١٦ شرفة وتشققت قبة النسر، وآخرها زلزال سنة (١١٧٣) فخربت قبة النسر والرواق الشمالي وأُعيد بناؤهما من قابل. حتى إذا كانت سنة (١٣١٠)

سرت النار إلى جزوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره ورياشه، وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى، وكان الناس يقولون: إنه المصحف العثماني، وجمعت أموال من إعانات وغيرها فنجز القسم الشرقي في سنة (١٣١٧)، وفي سنة (١٣٢٠) نجز القسم الغربي وظل العملة في بنائه الذي أُرجع إلى ما كان عليه بالجملة عشر سنين وصرف عليه ستون ألف ليرة عثمانية ذهب عدا من تطوعرا للعمل فيه بلا أجر. ولم يبق من محاسن الجامع القديمة إلا جدرانه وبعض كتابات من عهد السلجوقيين والأيوبيين والمماليك على بعض سواريه. وفي دار الآثار بدمشق أيضًا حجران كتبا بالخط الكوفي بعمارة قسم من الجامع، في القرن الخامس وصورتهما: الأول: بسم الله الرحمن الرحيم: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام}. أمر بعمارة هذه القبة والمقصورة والسقف والطاقات والأركان في خلافة الدولة العباسية أيام الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين، وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم سيد ملوك الأمم أبي الفتح ملك شاه بن محمد، وأيام أخيه الملك الأجل المؤيد المنصور تاج الدولة وسراج الملة شرف الأمة أبي سعيد تتش ابن ملك الإسلام ناصر أمير المؤمنين، وفي أيام وزارة الشيخ الأجل نظام الملك أتابك أبي علي الحسن بن علي الوزير الأجل السيد فخر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين أبو نصر أحمد بن الفضل من خالص ماله؛ ابتغاء ثواب الله عزَّ وجلَّ في شهور خمس وسبعين وأربعمائة.

الثاني: بسم الله الرحمن الرحيم: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم

فتحًا قريبًا}. أمر يعمل هذه المقصورة وترخيم الأركان في خلافة الدولة العباسية أيام المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله أمير المؤمنين، وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم سيد ملوك الأمم مولى العرب والعجم أبي الفتح ملكشاه بن محمد بن داود أمين أمير المؤمنين، وأيام أخيه الملك الأجل تاج الدولة وسراج الملة وشرف الأمة أبي سعيد تتش بن ملك الإسلام ناصر أمير المؤمنين الوزير الأجل السيد فخر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين أبو النصر أحمد بن الفضل من خالص ماله؛ ابتغاء ثواب الله عزَّ وجلَّ في شهور سنة خمس وسبعين وأربعمائة اهـ.

قصور الأمويين ومصايفهم ومشاتيهم

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال: دخلتها فإذا هي دار مجصصة حيطانها وسقوفها، وفيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب، ثم أُدخلت دارًا أخرى فإذا حيطانها وسقوفها خضر، وإذا وصفاؤها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد، وإن ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته. ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال: إنها دار قوراء مفروشة بالرخام، وهو في مجلس مفروش بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب، وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب حمر من الخز، وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب، يقلبه بين يديه فتفوح رائحته، وفي المجلس جاريتان لم ير مثلهما قط اهـ. والله أعلم أكان ذلك حقيقة أم خيالًا.

وقد ادعت ميس بل أنه لولا حوادث القرن السابع -أي لولا دخول العرب الفاتحين- لبلغ الشاميون طريقة في هندسة الأبنية خاصة بهم

مستقلة عن غيرهم، وإن امتزج بها شيء من هندسة الأمم الأخرى، فردَّ عليها لامنس بأن هذه المدينة مدينة دمشق لم تمس عاصمة كبرى إلا في عهد بني أُمية وبهمتهم. قلنا: ولو لم يُعفِّ بنو العباس آثار بني أُمية في الشام لرأينا فيه أحسن صورة تامة من صور بنائهم. وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية أو ما يقرب منها؛ لأن الأمويين كانوا على الأغلب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها وحمياتها، فمنهم من نزل قصر الموقر أو المقور وقصر المشتى والزيزاء والفدين والأزرق والأغدف والبخراء والأبيض والقسطل والرصافة والزيتونة والجابية وحوارين والصنبرة ودابق وبطنان حبيب وأُيابر في البلقاء وشمالي الشام وشرقها. وحصن الموقر بالبلقاء على ساعتين من عمان قرب قصر المشتى الواقع على ساعتين من مادبا سكنه يزيد بن عبد الملك، وكان رممه فجعله من القصور الجميلة. واستقر الوليد بن يزيد والعباس بن الوليد في القسطل في البلقاء، والوليد في الزيزاء وقصر الأزرق، وابتنى عبد الملك الأبنية حول قصر الموقر، وكان له في البرية عدة قصور. وقصر عمرا على قصر المشتى على سبعين كيلو مترًا من جهة الشرق وهو في وسط البادية. اكتشف قصر عمرا الأثرى موسيل سنة ١٨٩٨ وهو قصر أموي يجمع بين مزايا الصروح الملكية والحصون، وهو على الشاطئ الشمالي من البحر الميت وكان على ما يظهر حمامًا حفظت فيه كما قال هرزفلد نقوش عجيبة بحالها لم يحفظ مثلها في صقع آخر من أصقاع الشام، تمثل مشاهد الحمامات وألعابًا رياضية كالجريد وصيودًا لأنواع الطيور وقنصًا في البحر ولوحات تمثل الصناعات وصورًا رمزية تمثل أدوار الحياة في البادية والتاريخ والفلسفة والشعر، وخليفة جالسًا على العرش وأعداء الإسلام ورسوم منطقة البروج ورجالًا ونساء وأشجارًا وحيوانات في كئوس وفرش، وشجيرات وعساليج الكرمة والدفلى والنخيل وثمارًا وطيورًا من أطيار البادية وامرأة عريانة محلاة باللؤلؤ. وكلها تدل على أنها

من هندسة الروم والشاميين والفرس. ووجد فيه اسم: «قيصر، رذريق، كسرى، النجاشي» مكتوبًا بالعربية والرومية. وإجماع الأثريين على القول: إن هذا القصر من عمل الوليد الأول بين سنتي ٧١٢ و٧١٥ ميلادية. وكذلك قصر المشتى وهو على اثني عشر ميلًا شرقي عمان وعلى ساعة من شرقي القسطل في خربة الموقر، وهو قصر عظيم يشبه الحصون المنيعة يحيط به سور مربع الشكل تبلغ جوانبه نحو ١٥٠ مترًا وفي زواياه أربعة بروج مستديرة، ولكل من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بروج يشرف منها اثنان على جهتي باب البناء وهما كثيرا الأضلاع. ويقسم البناء إلى ثلاث مربعات مستطيلة أوسعها الأوسط فيه أبنية القصر القديمة وطول القصر خمسون مترًا في عرض سبعين، ويشتمل على حجرة واسعة يليها أربعة منازل. والأبنية كلها مشيدة بالآجر ما عدا طبقتها السفلى القائم عليها البناء فهي مبنية بالأحجار البيضاء. وفي ساحة القصر قطع ضخمة من الرخام الأخضر لم تنحت بعد. وكان وجه البناء الخارجي مزينًا بأبدع النقوش، وهي تمثل جفنة محكمة الصنع ذات أغصان وفروع تمتد على طول البناء تتخللها طيور وحيوانات ليست معروفة كالأسود المجنحة والعنقاء تمرح وتنقر العنب أو تشرب من الكئوس. اقتطع هذه الصور علماء من الألمان بأمر عبد الحميد الثاني، وهي اليوم في متحف برلين. والرأي الشائع أنها من صنع الغسانيين. وفي تلك الأرجاء نحو أربعين خربة لم يكشفها علماء الآثار حتى الآن.

وبنى هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الأنطاكي وحوله خندقًا وحصن بوقا من أعمال أنطاكية. وكان هشام ينزل في الزيتونة في بادية الشام، فلما عمر الرصافة انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات. وكان يزيد يقيم في حوارين وتدمر، وابنه خالدَ يسكن في قصر الفدين في البلقاء. ومن الدور الكبيرة بدمشق دار خالد بن عبد الله بن يزيد أبو الهيثم

البجلي القسري من أهل دمشق كان أميرًا على مكة وولي إمرة العراقين، وكانت داره بقنطرة سنان بباب توماء.

وبعض هذه القصور لا تزال أُسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا سور دمشق يوم فتحوها حجرًا حجرًا، وأخربوا أيضًا قصور الأمويين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر، وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب، ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير، وقصري هشام في الرصافة، وأبقوا في الغالب على قصر خُناصرة من أرض الأخص لعمر بن عبد العزيز احترموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أُمية. وفي الأغاني أن المأمون طاف على قصور بني أُمية وتتبع آثارهم فدخل صحنًا من صحونهم فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله. والظاهر من كلام المقدسي أن آثار بني أُمية كانت موجودة في القرن الرابع؛ خلافًا لما هو المعروف من أن العباسيين أتوا عليها كلها. والغالب أن بعض الأبنية لم تعور كثيرًا ورمت فأطلق عليها اسمها الأصلي ونسبت إلى بانيها الأول.

قصور خلت من ساكنيها فما بها ... سوى الأدم تمشي حول واقفة الدُّمى
تجيب بها الهام الصدى ولطالما ... أجاب القيانُ الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى ... بها الوفد جمعًا والخميس عرمرما

عمل العباسيين

قال الجاحظ: من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان، وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت

بالمدينة، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابنا (يعني العباسيين) بناء مدن الشامات (الشام) لهـ.

أمَّا بنو العباس فلم تبق الأيام من آثارهم مصنعًا يعتد به في الشام لنحكم على عظمتهم، وكان من أهمها قناة قرية منين التي جرَّها المأمون إلى معسكره بدير مران في جبل قاسيون. وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره؛ لأن الطريق من منين إلى قاسيون يحتوي على أودية وشعاب ونجاد كثيرة، ذكر ذلك ابن عساكر. وقد بني للمتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على أثر. قال ابن كثير: إن المتوكل لما جاء دمشق عازمًا على الإقامة بها سنة أربع وأربعين ومائتين أمر ببناء القصور بها وهي التي بطريق داريا. ومن ذلك يفهم أنها كانت موجودة إلى زمن ابن كثير. وفي سنة (٢٦٢هـ) بنى الأمير النعمان دارًا عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها. أما المتغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين، فإننا لا نعرف عن آثارهم كبير أمر أيضًا ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فإنهم آثروا أن يجعلوا مصانعهم في مصر مقر ملكهم. كما آثر العباسيون أن يجعلوها في العراق وخراسان. ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بأمر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى، وسخر الناس لأجل عمله وأخذ أموالهم.

ذكر ابن عساكر أن حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر وقنوات، وأجرى الفوارة التي في جيرون. وذكر أنه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة، وهو الذي أنشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤. وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار الدولتين النورية والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق إلى جانب المدرسة المقدمية، ثم صارت

لصاحب حماة ثم صارت لقرا سنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان. وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب، ولعلها دار المشيرية التي حرقت في العهد الأخير ودار السعادة هذه أكملت عمارتها سنة (٤٠٨هـ) بعد إلزام النائب أهل البلد بعمارتها، ومرمة ما يحتاج السكنى فيها وتحول إليها فسكنها.

آثار عربية محلية ميناء عكا

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في الشام حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب، انتهى إلينا قليل من أعمالهم مثل أبي بكر البناء المهندس الذي ابتنى ميناء عكا لابن طولون. قال المقدسي: ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون، وقد كان رأي صور ومنعتها واستدارة الحائط على مبناها، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك المينا، فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك، فقيل: لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان، ثم ذكر له جدنا أبو بكر البناء، وقيل: إن كان عند أحد علم هذا فعنده، فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه إليه، فلما صار إليه وذكر له ذلك قال: هذا أمر هين عليَّ بفلق الجميز الغليظة، فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري، وخيط بعضها ببعض، وجعل لها بابًا على الغرب عظيمًا، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد، وجعل كلما بنى خمسة دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها حولًا كاملًا حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك، وكلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به، ثم جعل على الباب قنطرة، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور. قال المقدسي: وميناء صور وعكا من العجائب. وقال ابن إياس من

أهل القرن العاشر: إنَّ في صور قنطرة ليس في الدنيا أعظم منها، وهي على قوس واحدة مثل قنطرة طليطلة بالأندلس؛ إلا أنها دون قنطرة صور. وبنى أحمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل.

وذكر المؤرخون أن جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة (٣٥٨) نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد، وأقام أصحابه هناك الأسواق والمساكن وصارت شبه المدينة، واتخذ لنفسه قصرًا عجيبًا من الحجارة، وجعله عظيمًا شاهقًا في الهواء غريب البناء. وهذه صورة ما وجد على جسر ثورًا مكتوبًا على حجر بالخط الكوفي على ما حققه أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري: أمر بعمارة الجسر المبارك مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه تاج الأمراء ... جيوش ... شرف الملك عمدة الإمام سيف الإسلام عز الدولة وعضدها، وأطال الله بقاءه في ربيع الأول سنة (٤٥٦).

وهب صاحب حلب محمود بن نصر لابن أبي حصينة المعري الأديب (٤٥٧) مكانًا بحلب تجاه حمام الواساني، فجعله دارًا وزخرفها، فلما تمَّ بناؤها نقش على دائرة الدرابزين فيها:

دار بنيانهـــا وعـــشنا بهـــا ... فـــي دعـــة مـــن آل مـــرداس

قـــوم محـــوا بؤســـي ولـــم يتركـــوا ... علـــيَّ فـــي الأيـــام مـــن بـــاس

قـــل لبنـــي الـــدنيا ألا هكـــذا ... فليحـــسن النـــاس إلـــى النـــاس

ولما تكامل البناء عمل دعوة حضرها الأمير محمود بن نصر، فلما رأى حسن الدار وقرأ الأبيات المتقدمة قال: يا أبا الفتح، كم صرفت على بناء الدار؟ قال: يا مولانا، هذا الرجل تولى عمارتها ولا أدري كم صرف عليها. فسأل المعمار فقال: غرم عليها ألف دينار مصرية، فأمر بإحضار

ألفي دينار وثوب أطلس وعمامة مذهبة وحصان بطوق ذهب وسرفسار ذهب فسلمها إلى ابن أبي حصينة وقال له:

قل لبني الدنيا ألا هكذا فليحسن الناس إلى الناس

وفي الروضتين أن صلاح الدين يوسف كان يزور القاضي الفاضل ليستضيء برايه فيما يريد فعله في جوسق (قصر) ابن الفراش بالشرف الأعلى في بستانه، حتى إن الصفي بن القابض لما تولى خزانة دمشق لصلاح الدين بنى له دارًا مطلة على الشرف بالقلعة، وأنفق عليها أموالًا كثيرة وبالغ في تحبيرها وتحسينها، وظن أنها تقع من السلطان بمكان؛ فما أعارها طرفًا ولا استحسنها، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان وقال: ما يصنع بالدار من يتوقع الموت، وما خُلقنا إلا للعبادة والسعي للسعادة، وما جئنا لنقيم، وما نروم أن لا نريم.

القصر الأبلق

ومن المصانع التي كانت بدمشق القصر الأبلق في الميدان القبلي، وهو قصر عظيم مبني من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر، بتأليف غريب وإحكام عجيب، بناه الظاهر بيبرس البندقداري، وعلى مثاله بنى الناصر محمد ابن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر. قال ابن فضل الله: وأمام هذا القصر أي أبلق دمشق دركاه[1] يدخل منها إلى دهليز القصر، وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن، المؤزر بالرخام، المفصل بالصدف والفص المذهب إلى سجف السقف، وبالدار الكبرى به إيوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر وغربيهما على شاطئ واد أخضر

(١) الدركاه: البيت المستطيل أمام الدار يرتفق به.

يجري فيه نهر، وله رفارف عالية تناغي السحب، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة. قال شيخ الربوة: سمي بالقصر الأبلق لكونه مبنيًا بالحجارة البيض والحجارة السود. وقد بقي هذا القصر عامرًا إلى عهد العثمانيين رآه ابن طولون الصالحي المتوفى سنة ٩٥٣، وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال: إن على أسكفته ضربًا من رخام أبيض وسطه مكتوب عمل إبراهيم بن غنائم المهندس. وقد قال العارفون: إنَّ التكية السليمانية قامت على أنقاض ذاك القصر. وذكر ابن تغري بردي أن الأبلق ما زال عامر تنزله الملوك إلى أن هدمه تيمورلنك في سنة ثلاث وثمانمائة عند حريق دمشق وخرابها.

وبنى علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف للملك المظفر في حماة أبراجًا وطاحونًا على العاصي، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل.

المعاهد الدينية والمدنية في العهدين النوري والصلاحي

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس وبعلبك وغيرها، وأخذوا ينشئون فيها المدارس والجوامع والربط والمستشفيات والقلاع والجسور، كان منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها، ولما ولي العادل أزال ما بناه نور الدين وبناها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس. ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القيمري في صالحية دمشق، وهندسة مدرسة الصهيبية في حلب، وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال: ومن أظرف ما يلحظ فيها

أن جدارها القبلي مفتح كله بيوتًا وغرفًا، وله طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبًا، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليًا أمامها، فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئًا دون كلفة ولا مشقة. وقد قيل: إنَّ منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الإسلامية.

ولقد بنى الملك الأشرف بن العادل بدمشق قصورًا ومتنزهات حسنة. وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه، كما قال ابن الأثير، فخرب المسلمون كثيرًا منها ونقلوا رخامها إلى دمشق وغيرها، وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجليلة المقدار، ولما تسلمها تقي الدين عمر حصن قلعتها، وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة. وبنى الناصر صلاح الدين من أُسرة صلاح الدين يوسف قصرًا في قرية القابون بدمشق «لم ير الراءون مثله» وعمر الشرف الأعلى في دمشق بقصور العظماء.

عمران دمشق في القرون الوسطى

وبعد أن كانت دمشق في القرن السادس أكثر مدن الأرض سكانًا كما قال ابن جبير، وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي أجمل مدينة في العالم بل أغنى مدينة، أحرق تيمورلنك بعض أحيائها ومدارسها وغرمها ملايين من الدنانير، وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين، في جملة من حمل من أرباب الصنائع إلى سمرقند، كما فعل السلطان سليم في مصر لما فتحها في الربع الأول من القرن العاشر، فحمل إلى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة.

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام أفردها ابن عبد الهادي في رسالة، كما كان في عصره ألف جامع ومسجد في دمشق وضاحيتها وناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران. ولا غرو بعد هذا إن قال فينا أبو الفضل ابن منقذ الكناني يوم كان لنا القدح المعلى في العمائر:

وإذا مررت على المنازل معرضًا ... عنها قضى لك حسنها أن تقبلا

إن كنت لا تستطيع أن تتمثل الـ ... ـفردوس فانظرها تكن متمثلا

وإذا عنان اللحظ أطلقه الفتى ... لم يلق إلا جنة أو جدولا

أو روضة أو غيضة أو قبة ... أو بركة أو ريوة أو هيكلا

أو واديًا أو ناديًا أو ملعبًا ... أو مذنبًا أو مجدلًا أو موئلا

أو شارعًا يزهو ببرع قد غدا ... فيه الرخام مجزعًا ومفصلا

دور الخاصة

ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليها زكا الأعور ودار حاجبه فيروز ودار سيما الطويل ودار كورة الخراساني، ومنها قصر السلطنة بدمشق. وذكر ابن عساكر أن محمد بن عمرو بن حوى السكسكي كان في إقليم من أقاليم غوطة دمشق يعرف ببيت لهيا، بينها وبين دمشق نحو ميل، وكان له في هذا الإقليم عدة قصور مبنية بالحجارة وخشب الصنوبر والعرعر في كل قصر منها بستان ونهر يسقيه، وكان كل جليل يقدم من الحضرة (بغداد) أو من مصر يريدها ينزل عنده وفي قصوره، وكان ذلك في القرن الثالث. ومن قصور الشام قصر عبد الملك بن صالح في مدينة منبج، وكان بناه لنفسه وأنشأ بستانًا إلى جانبه. قال ابن الجوزي: هدم أهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه، وكان عظيمًا يسع ألوفًا من الناس. وقصر بطياس في حلب المذكور في شعر البحتري كان عامرًا إلى عهد ابن العديم في القرن السادس، وكان عامرًا إلى عهده برج من

الحصن الذي كان بناه مسلمة بالناعورة، وكان بنى فيها قصرًا بالحجر الأسود الصلد.

وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فتنة القرامطة سنة (٣٦٣) وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله، وهو أحسن مكان كان بظاهر دمشق. وقال ابن شاكر: إن اللؤلؤتين كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غربًا وكانتا من أعجب البناء، أحرقهما المصريون لما حاصروا دمشق. واللؤلؤتان الصغيرة والكبيرة هما اليوم حدائق في أرض باب السريجة بينها وبين قرية كفرسوسة. وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل: ليس في الإسلام قنطرة أحسن منها ويقال: إنها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج. وقال ابن القلانسي: من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته، ومضاء همته، ومستحسن ابتدائه، ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الأوسط منها، وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها، أنشئ ذلك في سنة (٥٢٧) مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدثة على صيغة اخترعها، وبنية اقترحها، وصفة آثرها، فجاءت في نهاية الحسن والطيبة، والتقويم والاعتدال.

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أُسامة بن منقذ فرآها وقد تهدمت وتغير زخرفها، فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احـــذر مـــن الـــدنيا ولا ... تغتـــر بـــالعمر القـــصيرِ

وانظـــر إلـــى آثـــار مـــن ... صـــرعته منـــا بـــالغرور

عمـــروا وشـــادوا مـــا تـــرا ... ه مـــن المنـــازل والقـــصور

وتحولـــوا مـــن بعـــد سكـــ ـنـــاها إلـــى ســـكنى القبـــور

وذكر سبط ابن الجوزي أن أُسامة الحلبي بنى دارًا بدمشق بأنقاض بيوت الناس، فخربت على يد أيوب بن الكامل محمد في سنة (٦٤٧)، وكان أُسامة قد غرم عليها أموالًا عظيمة وأخذ أراضي الناس والآلات بدون الطفيف، وصح فيه القول القائل: الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب. وكانت هذه الدار سبب هلاك أُسامة.

تجديد المدن الصغيرة

من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الأتابكية والأيوبية مثل حماة، فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر، وكان الصيت لحمص دونها، فلما آلت إلى ملك بني أيوب مصروها بالأبنية العظيمة والقصر الفائقة، والمساكن الفاخرة، وفي جوامعها أثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها. ومنها ما قام على أنقاض الكاتدرائية القديمة، ومنها ما حرق وخرب واستعيض عنه مكان آخر، مثل طرابلس ففي سنة (٦٨٨) فتحت طرابلس وأُخرب سورها وكان من الأسوار العظيمة. وأمر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس. ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري: إنَّ فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة ما يورث العجب وتسمى دهليز الملك. وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع أذرع، وفي مواضع عشر أذرع. وقال ابن فضل الله في بعلبك: إنها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها، وحسن بنائها وترتيبها، بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والأسواق الحسنة. وقال آخر: وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الأيوبية آثار ملوكية جليلة. وكان على منبج سور بالحجارة المهندسة حصينة جدًّا. ومن هذه المدن ما أصبح الآن كالقرى

مثل المعرة -معرة النعمان- التي ترى إلى اليوم مسافة ما بين أبوابها ساعة على السائر، ومثل قيسارية التي قال فيها المقدسي: ليس على بحر الروم بلد أجل ولا أكثر خيرات منها؛ مر أحدهم سنة أربعين وستمائة بقيسارية فوجد على حائط منها مكتوبًا هذه الأبيات:

هـذه بلـدة قـضى الله يـا صـاح عليهـا كمـا تـرى بـالخراب
فقـف العـيس وقفـة وابـك مـن كـا ن بهـا مـن شـيوخها والـشباب
واعتبـر إن دخلـت يومًـا إليهـا فهـي كانـت منـازل الأحبـاب

وأزهرت طرابلس على عهد اسندمر الذي بنى القلعة وحمامًا وسوقًا، وأنشأ فيها مجاري المياه الغريبة في تقسيمها إلى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الأرضية، وقد عمر فيها سنة (٧٠٩) حمامًا عظيمًا أجمع من رأوه أنه ما عمر مثله في البلدان، وعمر قيسارية وطاحونًا وأنشأ لمماليكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه إليها بالقنوات، ومنها ما يطلع إلى أعلاها وتجري في طباقها، وعمر بعض القلعة وأقام أبراجًا وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس -قاله النويري.

قال الأسدي: في سنة أربعة وعشرين وثمانمائة عمر ابن بشارة مدينة صور وجعل لها أسواقًا ونقل إليها خلقًا وحصنها، قال بعضهم: إنها مدينة السواحل بالشام، وقال ابن السمعاني: وكان بها جماعة من العلماء.

القلاع والحصون وقلعة حلب ودمشق

في الشام كثير من القلاع من بناء القرن الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد. قال ابن تغري بردي في حوادث سنة (٤٦٦): وفيها بنى حسان ابن مسمار الكلبي قلعة صرخد. وكتب على بابها أمر

بعمارة هذا الحصن المبارك الأمير الأجل مقدم العرب عز الدين فخر الدولة عدة أمير المؤمنين -يعني المستنصر- صاحب مصر، وذكر عليها اسمه ونسبه. ومثل قلعة حلب وإن كانت تاريخها يُرد إلى أبعد من هذا القرن والمهم من أبنيتها بدأ في عهد الإسلام.

وقلعة حلب أفخم ما في الديار الحلبية من القلاع بنيت وسط المدينة على أكمة ربما كانت صناعية، ويحيط بها خندق عظيم كان القدماء يملأونه ماء ليتعذر الوصول إليها إلا من مدخلها، وهذا من أحسن ما يتصور العقل، ويقال: إنَّ حلب القديمة كانت كلها مبنية في هذه القلعة، تعاورتها الأيدي بالبناء في قرون مختلفة وظلت مسكونة إلى سنة (١٨٢٢م) أيام خربت بالزلازل. يسير الداخل إلى القلعة على جسر بديع أُقيم فوق الخندق، فيبلغ برجًا خارجًا جعل في واجهته أنواع من نوافذ الحديد البديع، قيل: إنه من عهد الظاهر غازي، لما وجد في مدخله من كتابة تاريخها سنة (٦٠٥) مع بعض الآيات الكريمة. وفي دهليز القلعة المتعرجة عدة كتابات ونقوش بارزة على الحجر منها صورة نمرين على يمين الباب ويساره من أجمل ما زبرت أيدي النقاشين على الصخور. فإذا دخل المرء من الباب وجد ساحة وآثار عدة شوارع وركامًا من الأنقاض، وبعضها أنقاض جامع ومأذنة، وأُخرى أنقاض أروقة، وأُخرى محال لرصد العدو، وفي الوسط صهريج كبير ينزل إليه بمائة وخمس وعشرين درجة، وكان بها دير للنصارى وقال: إن في أساسها ثمانية آلاف عمود، تعاورها الملوك في الإسلام بالبناء والترميم، ومنهم الظاهر غازي الذي بنى على بابها برجين لم يبن مثلهما قط، وجعل لها ثلاثة أبواب حديد. وكان كثير من ملوك حلب يسكنونها. وذكر الغزي أن في قلعة حلب آثار عدة مساجد، وأنه كان فيها عشرة مساجد. قال الخالدي شاعر سيف الدولة في وصف هذه القلعة:

وخرقاء قد قامت على من يرومها ... بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجو صيب غمامه ... ويلبسها عقدًا بأنجمه الشهب
إذا ما سرى برق بدت من خلاله ... كما لاحت العذراء من خلل الحجب
فكم من جنود قد أماتت بغصة ... وذي سطوات قد أبانت على عقب

ومثل هذا يقال في قلعة دمشق التي سميت (الأسد الرابض) وهي من بناء تاج الدولة تتش سنة (٤٧١هـ) جعل بها دار إمارة وسكنها، ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم. وكانت دار الإمارة قبله تسمى «القصر» بناها العباسيون بعد أن دكوا الخضراء وقصور الأمويين، فخرب القصر في بعض فتن الفاطميين. وفي سنة (٦٩١) كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء في قلعة دمشق، فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع، وأُنشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب، وفرغ من جميع ذلك في سبعة أشهر. طولها من الشرق إلى الغرب ٣٣٠، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١٧٠ خطوة، وقد خربت في أدوار كثيرة ثم أُعيد بناؤها.

ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق، وهي أقدم من الإسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في أدوار مختلفة، دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف أرنون وشقيف تيرون وهونين وتبنين وكوكب وعجلون وقاقون والصبيبة الصلت والهارونية وبيت لاها وحصن أبي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون وبغراس ودربساك ودركوش واسفونا وبسرفوت وبلاطُنُس وحصن الأكراد وشيزر والمنيطرة والشغر وبكاس وارسوف وبيت جبرين وحبرون وأرتاح والأثارب وبارين وبارة وإعزاز وصرفند وعدلون وبرج الرصاص وحصن الإسكندرونة والتينات وحلبا وعرقا

وبرزية وخناصرة وقسطون وتل أعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات والكهف والعليقة والخوابي، وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة؛ أي الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية. هذا إلى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة وحمص وعكا والكرك والشوبك وصرخد وأذرح وصفد وشميميس، ومعظمها تناطح السحاب بعلوها، وتشبه الجبال بمتانتها.

بدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون؛ لأن المدينة أو الموقع الحربي إذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين أن يجتاحهما. ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الأحزان: «وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظام الحجارة، كل فص منها من سبع أذرع إلى ما فوقها ما دونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم، المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سقيته بالكلس، وأحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه».

مثال التخريب في الحصون والبيع

وكثيرًا ما كان ساسة هذه الديار يخربون الأسوار والحصون لغرض من الأغراض، كما خرب عبد الله بن طاهر سنة (٢٠٩) سور معرة النعمان ومعظم الحصون الصغار؛ مثل حصن الكفر وحصن حناك وحصن كيسوم وغير ذلك. وكما خرب سلاطين الشام منذ استولى عليها الأتابك زنكي إلى أواخر عهد المماليك الحصون التي استولوا عليها أو التي كانوا بنوها؛ لئلا يعود أعداؤهم فيستولوا عليها. وقد ألف جمهور الناس أن ينقضوا

البنيان القديم ويعمروا به بناءهم الحديث. ولهذا أمثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه الديار. فقد ذكر العماد الكاتب أن اللاذقية لما استخلصت من أيدي الصليبيين وقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالًا إلى منازلهم بالشام «فشوهوا وجوه الأماكن ومحوا سنا المحاسن» وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة بأجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعة، وأجناس تصاويرها متنوعة، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوهوا أعلامها.

ولما أرادوا في أواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر دمشق من صدر الباز إلى داخل مدينة دمشق، حملوا إليه من ضخام الأحجار التي كانت في قلعتها. وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في أكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز. وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق، ودار العدل التي بناها نور الدين في دمشق وهي أول واحدة من نوعها نباها لكشف الظلامات. وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع، كما جدد كثيرًا من الجسور والخانات وقنوات السبل في أعمال دمشق وغيرها. ولأهل الخير في كل عصر أياد بيضاء في إقامة الخانات والفنادق بين البلدان ومنها خان بناه علي بن ذي النون الإسعردي الدمشقي بقرب الكسوة أول مرحلة للحج الشامي. وما كان في قمم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للإعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد من أبراج حمام الزاجل لنقل الأخبار في النهار، ومن ذلك دمنة القبتين الماثلتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناه المأمون فدثر في جملة ما دثر. واسم القبتين قبة السيار وقبة النصر؛ وقبة النصر بناها برقوق على سوار قيل: إنه وجد موضعها ذهبًا كثيرًا مدفونًا. ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال: بل كان له رسم قديم.

قلاع الصليبيين وكنائسهم

دخلت الشام في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية، وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس، ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا. واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في الأقاليم التي احتلوها؛ ولا سيما في طرابلس وصور وأنطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين: إذا استثنينا الدور الروماني فإنه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين، فإن كل مستعمرة تجارية في المواني البحرية كانت تحاول أن يكون لها على الأقل كنيسة وخانات وحمامات. ثم القلاع التي غص بها القطر وهي أحسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى. قال فان برشم: إن على طرابلس صبغة المدن الإيطالية أثرت فيها منذ الحروب الصليبية، كما أثرت هندسة المدن الإيطالية الكبرى في جميع المواني البحرية في الشام. وكان للطراز الإيطالي التقدم على غيره؛ لأن الطليان أهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا أسبق أمم الغرب إلى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية. وكان عدد الصليبيين من جمهوريات إيطاليا أكثر من غيرهم من الأمم. قال فان برشم: لما كانت سواحل الشام محط رحال الصليبيين، ونقطة حركاتهم الحربية، تشبعت أبنيتها بالروح الإيطالي؛ خصوصًا لأن الطليان كانوا إذ ذاك أكثر عددًا في هذه الحملات من العنصر الفرنسي. ومن هذه المدن ما دثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان، ومنها ما هو باق مثل أنطاكية وبيروت واللاذقية وعكا. وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتحلى الروح الإيطالي الباقي من القرون الوسطى في أبنيتها وهندستها. ولا تزال قلعة الحصن أو حصن الأكراد والكرك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه، هي آية

في باب الهندسة العسكرية ناطقة بلسان حالها بأن الصليبيين نزلوا الأرض المقدسة. ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وأرواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة أنفة، هذا إلى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون، وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصنًا في الكُور التي احتلوها.

قال رنان: الظاهر أن البنايات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكليين، وأن البنايات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسيين وفرسان الاسبتاليين، وكثيرًا ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم. وكان القطر غاصًا بها -يعدل ذوق الإفرنج الخاص في هذا المعنى. قال: وفي طرطوس قامت أهم هذه الآثار، واستدل بما فيها أن منزل الصليبيين في الشام لم يكن منزل قُلعة، بل وطدوا أنفسهم على احتلالها احتلالًا دائمًا، وإن في طرطوس بيعة هي أجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار.

هندسة البيوت وبيوت دمشق وحلب

لم يبلغنا أن في القطر دورًا يرد تاريخها إلى ألف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن، كما بقيت مثلًا بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة على الصورة التي كانت عليها بنوافذها وأبوابها الحجرية. وكما ادعى القرماني أن في اللجاة من البنيان ما يعجز عن وصفه اللسان، وكل دورها من الصخر المستحدث ليس في الدار خشبة واحدة؛ بل كلها حجارة سوداء منحوتة تنوف على مائتي ألف دار (كذا) كل دار منفردة عن الأخرى لا يلاصقها جدر أُخرى، وكل دار فيها حوش وبئر وله باب من حجر إذا أُغلق ووضع خلفه حصاة لا يمكن فتحه أبدًا

من الخارج. ولكننا على مثل اليقين من أن طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور، وأن هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أُسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الأخيرة، ومنه مثال حي من المدارس والرُبط وغيرها في دمشق.

قال أحد المهندسين المعاصرين: إن التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية، فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع، ويكتفي بطيقان للتهوية، ولها فناء داخلي تحف به غرف ومخادع، وفي وسط الفناء أو الصحن فوارة أو حوض ماء. لا جرم أن المسلمين قد أخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط، ولا نزال نجد فيه مثالًا في الأندلس حيث يسمى الفناء الداخلي باسم «باتبو» أو الفناء المبلط.

وكانت دمشق تعتمد في أبنيتها على الحجر غالبًا. وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الأدوار الأخيرة. قال المقدسي: إن منازل دمشق ضيقة وأزقتها غامة، وأكثر أسواقها مغطاة، ولهم سوق على طول البلد مكشوف، لا ترى أحسن من حماماتها، ولا أعجب من فواراتها. هذا في القرن الرابع للهجرة. وقال ابن جبير في القرن السادس: إن أكثر أبنيتها بالقصب والطين. وقال ابن فضل الله في الثامن: إن غالب بناء دمشق بالحجر ودورها أصغر مقادير من دور مصر؛ لكنها أكثر زخرفة منها، وإن كان الرخام بها أقل، وإنما هو أحسن أنواعًا. قال: وعناية أهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به وتحسن بأوضاعه، وإن كانت حلب أجل بناء لعنايتهم بالحجر، فدمشق أزين وأكثر رونقًا لتحكم الماء على مدينتها، وتسليطه على جميع نواحيها، ويستعمل في عمارتها خشب

الحور بدلًا من خشب النخل، إلا أنه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره، وأشرف دورها ما قرب، وأجل حاضرتها ما هو في جانبها اهـ.

قلنا: وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير أماكن بيوتهم؛ فقد كانوا اصطلحوا على أن الأطراف منازل الأشراف قال البحتري:

عجب الناس لاعتزالي وفي الأطـ ـراف تُلفى منازل الأشراف

نماذج من آثار الشراكسة والعثمانيين

ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية والربوة والشرف الأعلى الشمالي والشف الأدنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصورًا أنيقة ينزلها القضاة والحكام وكبار أرباب الأملاك والأشراف، ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الأيام حتى تحكم على ما عمله الدمشقيون وأسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الإسلامي الأوسط. وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين، ويقول كاتب جلبي: إنه كان في المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى إيفاؤها حقها من الوصف لا سيما أبنية البرامكة وآثارهم، فإنها لم تزل باقية إلى هذا العهد (القرن الحادي عشر). وروى الظاهري أن دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة على المدينة بها تخت الملك مغطى لا يكشف إلا إذا جلس السلطان عليه وقال أيضًا: إن ما في الميدان الأخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب، وهذا في القرن العاشر.

وقد أنشأ العثمانيون بعض خانات في طريق الشام إلى الروم، وفي طريق الشام إلى الحجاز وبعض قلاع أو أبراج ومنها برج قلعة طرابلس؛ فقد كتب على أحد جدرها بعد البسملة: «رسم الشريف العالي السلطاني

الملكي المظفري سلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم شاه لا زالت أوامره الشريفة مطاعة في الأمراء بأن يجدد هذا البرج المبارك؛ ليكون حصنًا منيعًا على الدوام، وكان الفراغ من عمارته في شهر شعبان المبارك سنة (٩٢٧)»، وفي سنة (٩٦٧) أمر السلطان سليمان بتعمير قلاع بطريق الحاج الشامي وتعيين صنجق لكل قلعة واحدة بالقطرانة وثانية بمعان إلى ما وراء ذلك من أرض الشام، فعمرت ودام الانتفاع بها زمنًا طويلًا.

ومن آثار العثمانيين في دمشق التكيتان السليمانية والسليمية والجامعان السنانية والدرويشية. بنوها على الأسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب، ومنها المدرستان البديعتان مدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية. قال سوبرنهيم الأثري: إن عددًا عظيمًا من مصانع حلب يرد إلى زمن المماليك والعثمانيين، وما عدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الأطروش وألطون بغا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة - وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى- فإن حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه أرغون سنة (٧٥٥) وبكثير من المخازن والخانات والحمامات والدور والسلسبيلات. وفي هذا المستشفى أفاريز ونقوش من أجمل ما نقش النقاشون، تزينه فتجعله بهجة للناظرين. ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني، وكلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد أن يتصور أصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي الشام اهـ. ومن أجمل آثار الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب ست سنين. ولو كتب البقاء للقصر الذي بناه بقرية بطياس من عمالة حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب أنطاكية، وقصر مرتضى الدولة أحد موالي ابن حمدان، وقصر سيف الدولة ابن حمدان الذي بناه بالحلمة من

ضواحي حلب وتناهى في حسنه وعمل له أسوارًا، وقد أحرقه الروم في إحدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك، أو قصر آخر من قصور الحمدانيين - لو كتبت الأقدار ذلك لساغ لنا أن نحكم حكمًا صحيحًا على هندسة دور الشهباء في القديم. والغالب أن هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم.

هندسة الجسور

وفي سنة (٦٩٢) كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين أرقطاي، وكان بناؤه بعد خراب الجسر الذي أقامه أنطونيوس الحليم الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة وأربعين سنة، وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل إلى مدينة بيروت، كما هو مكتوب على الصخر قبالة الجسر القديم مما يلي قبليه على هذه الصورة: الأمير إدوار قيصر مارقوس أورليوس أنطونيوس الحليم السعيد أغسطس كبير الجرمانيين الحبر الأعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلًا، ولقبه بالطريق الأنطونياني. ولقب هذا النهر بالكلب لكونه بعدما أصلح أنطونيوس الملك نصب به قائمًا (نصبًا) من حجر كبير على صورة الكلب، وقيده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه نقيرًا لأجل الطعام.

لما أراد نائب الشام في أواخر النصف الأول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت، وندبوا لذلك مهندس خبيرًا بالأعمال الساحلية يقال له أبو بكر بن البصيص البعلبكي، وهو الذي عمر جسر نهر الكلب، وله غير ذلك من الأعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة. وعمر الأمير بشير الشهابي بإيعاز من والي صيدا جسرًا

على نهر الدامور أيضًا فجمع أهل الصناعة إليه فكانوا أكثر من مائة وخمسين رجلًا، فأتمه في شهرين وغرم عليه نحو مائة ألف درهم. وكذلك جسر الظاهر برقوق الذي بناه على نهر الأردن (الشريعة) وطوله مائة وعشرون ذراعًا وعرضه عشرون، وقالت فيه السيدة عائشة الباعونية الدمشقية:

بنى سلطاننا برقوق جسرًا ... بأمر والأنام له مطيعه
مجازٌ في الحقيقة للبرايا ... وأمرٌ بالمرور على الشريعه

وعمر قاضي دمشق سنة (٩٣٢) سوقًا تجاه باب جيرون بدمشق فبنى أقواسًا بجملون فيها قباب مبنية بالآجر، إذ رآه أحكم في البناء؛ لأنه لا يحتاج إلى طين ويؤمن من حرقه. وجدد سور قلعة حلب السلطان سليمان في شهر المحرم سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكتب ذلك بالعربية.

القاعات والقصور المعتبرة

من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه إلى القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر، ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم في تلك العصور؛ فمنها القاعة المشهورة بباب جيرون وباب السلسلة أنشأها الأمير محمد بن منجك الذي عمر العمارات الفائقة بدمشق، فإنه تأنق في عمارتها بالقاشاني والرخام وعمر القصر المعروف به في الوادي الأخضر (١٠١١) وذكر الخياري أنه كان في القرن الحادي عشر في المرجة بدمشق قصر مقابل القصر المنجكي قصر الباشا محمد بن الناشف، وغير ذلك من العمارات والقصور الفائقة. وكان في الصالحية محل يقال له عمره أبو البقاء الصفوري المتوفى سنة (١٠٣٥)

وكان يقال له: صاحب القصر، وكان من أحسن المتنزهات، وفيه يقول الأمير المنجكي من قصيدة:

أقسمت بالبيت العتيق وما حوت بطحاؤه من حجره وحجونه
ما ضمت الدنيا كقصرك منزلًا كلا ولا سمحت بمثل قطينه

ومنها عمارات ابن الفريخ أمير البقاع (١٠٠٢) وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة. قال المحبي: لم يرسم مثلها، جعل بابها بالرخام الأبيض والحجر الأحمر المعدني، ونقل لها الرخام من الساحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة. وفي سنة ١٠٣٤ بنى الأمير منذر التنوخي سرايا عظيمة في قرية عبيه في لبنان وبقي أربعين سنة لم يكملها لزيادة اتساعها، وكان البناءون من إسلامبول ولعلها هي المعروفة بدار الأمير سيف الدين، ولا تزال موجودة وقد كتب على باب دارها:

قسمًا بمن ضمت أباطح مكة ومنى وزمزم والكتاب المنزل
ما شدتها طمع الخلود وإنما هي جنة الدنيا لأهل المنزل

وأمر الوزير أحمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة (١٠٧١) بعمارة قاعة معظمة داخل دار الإمارة بدمشق، فبنيت كما قال المحبي على أُسلوب عجيب ووضع غريب. وقال المؤرخون: إن الأمير بشير الشهابي كان كالأمير فخر الدين المعني يحب البذخ والرفاهية وتنظيم إصطبلاته وبيطرته حتى أصبح مضرب الأمثال في ذلك، وعمر في بيت الدين قصرًا ملوكيًا وجلب إليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ. قال بعض المؤرخين: جر الأمير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا إلى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات، وغرم على ذلك زهاء مائتي ألف درهم، وكانت جميع أهل الأقاليم

تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة بغير أجرة إكرامًا له، ومدة العمل اثنان وعشرون شهرًا.

والمهندسون في سراي بيت الدين إيطاليون والبناءون دمشقيون وحلبيون وأتراك من الأستانة، وهي على الطرز التركي الممتزج بالطراز الإيطالي، أنشأها الأمير بشير عمر الكبير (١٨١٠) وانتهت سنة (١٨١٥) وعلى جوانب هذا القصر أربعة جواسق بديعة، وله مدخل فخم يبلغ علوه نحو ١٥ مترًا كله بني بضروب الرخام الوطني الغالي الثمن والأجنبي الفاخر، مزين بنقوش ملونة، وتمثل أشكالًا هندسية ونباتات وتصاوير شتى، ولهذا المدخل أفاريز لطيفة الصنع تطيف به على شكل الأقواس، وفوقه شُرف بتقاطيع جميلة، وللمدخل رتاج عظيم ذو مصراعين، وفي داخل القصر ديوان كبير واسع يعرف بقاعة العمود، لعمود من الرخام المجزع في وسطه، كان مفروشًا بالفسيفساء والرخام وهو ملك الحكومة منذ سنة (١٨٦٠)م ولم يبرح عامرًا تتعهده بالإصلاح. ومن الأبنية التي اشتهرت قاعة حسين بن قرنق في صالحية دمشق عمرت سنة (١٠٧٧) وكان يضرب بها المثل، وهي على الأرجح في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي. وكان ابن قرنق صدر دمشق وعمر الأماكن البهية من جملتها قصره وقاعته.

ومن الدور القديمة في حلب وهو مما بني في القرن العاشر دار جان بلاط ابن عربو، وهي ملك آل إبراهيم باشا ذكر في أعلام النبلاء أن صدر إيوانها مبلط بالقاشاني على اختلاف أنواعه وألوانه على أشكال هندسية وأوضاع بديعة أحكمت فيه الصنعة أيما إحكام قال: إن رؤيتها تذكرك إيوان كسرى وعظمته. وذكر المحبي أن الوزير حسين باشا صاري أحد ولاة دمشق المتوفى (١٠٩٤) عمر القصر المعروف به في طرف الشرف بالميدان الأخضر من دمشق، وكان مكانه يعرف بالخاتونية وتأنق في

وضعه وغرس فيه أنواع الأشجار من كل صنف، وعزَّ عليه بدمشق بعض أنواع الفاكهة فجلبه من أماكن بعيدة.

ومن محاسن دمشق الداران اللتان عمرهما في القنوات الأمير منصور الشهابي أمير وادي التيم، وابن عمه الأمير علي، وذلك على أسلوب متقن محكم وزخرفاهما بأنواع الزخارف والنقوش، وجلبا إليهما الرخام من إقليمهما. قال المحبي: ولعمري إنهما أبدعا ونوعا وأجادا في صنعهما.

وذكر المؤرخون أن الأمير فخر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب، ولعلهم من إيطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا، وذكروا أيضًا أنه بنى عدة بنايات وقلاعًا وحصونًا كثيرة، ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا وأتى بنو سيفا أصحاب طرابلس فأحرقوا ونهبوا الشوف قيل: إنه أقسم هكذا: وحق زمزم والنبي المختار لأعمرك يا دير بحجر عكار. وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن وأخذها وهدمها، جعل الجمال بالألوف تحمل الحجارة من قلعة عكار إلى دير القمر، وبنى جميع الدور القديمة في دير القمر، ووزع في جدرانها من حجارة عكار، وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الخراج، وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية إلى الآن.

قصور القرن الثاني عشر والثالث عشر

ومن أمثلة البناء الجميل دار أسعد باشا العظم في جوار جامع بني أُمية بدمشق شرع بإنشائها (١١٦٣) وانتهت (١١٧٤) قيل: إن ما أنفق عليها أربعمائة كيس، كل كيس بخمسمائة قرش. وهذا أجور العملة، وأما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من أملاكه وبساتينه عدا من سخرهم للبناء من الناس. وكان عدد العملة ثمانمائة. قال ابن بدير: إن بانيها جد في العمارة ليلًا ونهارًا وأحضر لها ١٢ ألف عمود خشب، عدا

ما أهداه إياه أعيان البلد. وأوعز إلى الأطراف أن لا يباع القصرمل إلا إليه، وشغل غالب بنائي البلدة ونجاريها ونقاشيها، وجلب البلاط من أكثر دور المدينة، وحيثما وجد بلاطًا ورخامًا وأعمدة وفساقي يبعث بمن يقتلعها ويعطي القليل في ثمنها. وكان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال له: قصر الزهرائية مطل على المرجة الخضراء انهدم فأخذ أنقاضه، وأخذ أنقاض طاحون كانت على نهر بانياس في وادي كيوان، ونقل من بصرى أحجارًا وعمدًا من الرخام، وأخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية عمدًا غلاظًا وهدم سوق الزنوطية فوق حارة العمارة، وكان كله عقدًا بالأحجار ففكه وأخذ أحجاره، كما نقل أحجارًا من جامع يلبغا. وأينما سمع ببلاط لطيف أو عمد حسنة يأتي بها شراء وبلا شراء ويشغل العملة بكراء وبلا كراء. قيل: إن داخل هذه الدار أماكن عديدة لا تشبه الواحدة الأخرى، وجميعها عمل بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم. ونقل بعض السائحين أن ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم. وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والردهات والأبهاء والفساقي والفوارات والحمام من ألطف ما هندس المهندسون في ذاك القرن، وكذلك يقال في قصره في حماة، وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة. والنقوش وأنواع الزينة فيها فارسية. فاستدل من ذلك أن النقاشين كانوا فرسًا أو تأثروا بالأسلوب الفارسي. ومن أجمل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها أنها كانت عامرة أكثر من اليوم على ما يظهر. ودار أسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورمتا وجعلتها معهدًا للدراسات الإسلامية (حزيران ١٩٢٢)، وقد حرقت قاعتها في ثورة سنة (١٣٤٤هـ). ودار أسعد باشا في حماة اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة أيضًا. ومن أجمل الآثار في دمشق أيضًا خان أسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابته»، وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس إلى الرأس

وعرضه. ومن أعظم بيوت حلب القديمة سراي الحلبي كانت كل غرفة منها تضاهي دارًا عظيمة استخرج منها مؤخرًا خان وعدة دور. ومن أعظم خانات حلب خان الكمرك القديم المعروف بخان محمد باشا الشهيد طوله مائة ذراع في مثلها.

ومن أجمل آثار ذاك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذاك القرن. ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان، وفي الهلالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا. فإن هذه القصور مثال من تفنن أعيان ذاك الزمان في تنجيد بيوتهم وحسن هندستها، وكانوا يبنون كما قيل بناء الجبابرة وينقشون نقش الصياغ.

وإنا إذا تأملنا الأبنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزًا طليانيًا في الأكثر قد لا ينطبق مع روح القطر، ومصطلحه في إشادة البيوت منذ القرون الأولى. وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان أولًا، ثم امتد إلى طرابلس ويافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن. وما دور بني سرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيزية في حلب ومصايف لبنان في عالية وصوفر وبحمدون وبكفيا وشوير، وغيرها وبعض الدور المحدثة في دمشق إلا مثال منها. ومن أهم أبنية الشام المحدثة دير الكازانوفا في الناصرة، ودير الألمان ودير الروس في القدس، ومدرسة اليسوعيين والجامعة الأميركية وقصر الصنوبر في بيروت، ومحطة السكة الحجازية في دمشق، ومحطة سكة بغداد في حلب، وغير ذلك من القصور الخاصة والفنادق والمدارس والملاجئ والمياتم والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها. ومن أهم دور القرن الماضي

في دمشق دار القوتلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني. ومن الدور الحديثة قصر الإمارة الجديد في عمان سموه قصر رغدان، ويسرع البلى إلى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين أو بعضها منهما على الأغلب. وأكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها تنبو عنه العين والزخرف في داخلها قال البحتري:

وتأملـــت أن تظـــل ركـــابي ... بـــين لبنـــان طُلّعـــا والـــسنير

مـشرفات علـى دمـشق وقـد أعـ ... ـرض منهـا بيـاض تلـك القـصور

ومع أن المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من أبيض ومائل إلى الصفرة أو الحمرة، فإن القوم يستسهلون أو يسترخصون البناء بالخشب واللبن أو الحجر الأسود البركاني، فيبنون به كما يبني أهل حمص؛ بل أهل كل بلد كانت الحرار السوداء قريبة منهم. وأجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب. ولم يزل بناء بيت المقدس -كما قال القاضي الفاضل- من الرخام الذي يطرد ماؤه، ولا ينطرد لألاؤه، قد لطف الحديد في تجزيعه، وتفنن في توسيعه إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، كالأشجار لها من النبت أوراق. وإن بعض القاعات إذا كتب لها البقاء فلأنها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها أيدي العقلاء، فرمتها يوم احتاجت إلى الترميم بطارئ طرأ عليها.

أسباب الخراب والعلة في قلة قصور الأفراد

قلّت في الشام قصور الأفراد من التجار والصناع والزراع كما تشاهد في الغرب مثلًا؛ لأن السكان كانوا يفنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة، أو من كان يعد من جملتهم، وكان سائر الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة في الثروة،

والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس، فيتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال وفسدت الأذواق في البناء وحسن الذوق تبع للحضارة في الأمة، فإذا تأخرت حضارتها كان الذوق من أول ما يفسد فيها. ولذا كان الناس يخربون العامر ويبنون بأنقاضه. وكما أدركنا وأدرك آباؤنا وأجدادنا من أثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته. وكم من كتابة تاريخية عفي أثرها جهلًا وغباوةً. اجتاز القاضي أبو يعلى المعري ببلدة شيات ظاهر معرة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعًا آخر فقال:

مررت برسم في شياث فراعني ... به زجل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما ... رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها شلت يمينك خلها ... لمعتبر أو زائر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ... ولم أر أحلى من حديث المنازل

والعلة العظمى في نزول الدمار ببيوت الأفراد أنها أسرع عرضة للتبدل أكثر من المصانع العامة بالخراب والانتقال من يد إلى يد بالإرث والتقسيم ويتحيفها ما يتحيف المصانع من زلزال وتخريب بأيدي الفاتحين والغزاة. قال بنيامين في رحلته: وقد أصاب حماة هزة أرضية منذ عهد قريب (٥٥٢هـ) أهلكت خمسة عشر ألفًا من سكانها في يوم واحد؛ فلم يبق منها إلا سبعون نفسًا. وقال أبو الفداء في هول هذا الزلزال: ويكفي أن معلم كتاب كان بمدينة حماة فارق المكتب وجاءت الزلزلة، فسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم: فلم يحضر أحد يسال عن صبي كان له هناك.

وزلزلت الأرض سنة (٥٩٧) فهدمت مدينة نابلس، فلم يبق فيها جدار قائم ومات تحت الردم ثلاثون ألفًا، وهدمت عكا وصور وجميع قلاع

الساحل، وامتدت إلى دمشق فهدمت أكثر الكلاسة والبيمارستان النوري، وتهدمت بانياس وهونين وتبنين. وخرج قوم من بعلبك يجنون الريباس من جبل لبنان فالتقى عليهم الجبلان فماتوا بأسرهم، وتهدمت قلعة بعلبك مع عظم حجارتها ووثيق عمارتها، وامتدت إلى حمص وحماة وحلب والنواحي، وأحصى من هلك في هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف ألف إنسان ومائة ألف إنسان، قاله في ذيل الروضتين، ولم يكن زلزال سنة (٥٦٥) أقل من هذا فقد أخربت دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين وحلب، وتهدمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها، وهلك منهم ما يخرج عن الحد، وأتى الخراب على حلب فأتى على سورها وجوامعها.

الاحتفاظ بالعاديات والمصانع

وبعد فقد علمنا بما مرَّ بنا أن الشام وافر المصانع أبقت فيه كل أمة وكل جيل أثرًا من غناها وعظمتها، وأن الخراب يتحيف أكثر هذه العاديات؛ لأن حب الاحتفاظ بالقديم قد ضعف فينا. ونرى الشام لا يحتفظ بآثاره وينميها إلا يوم تنشأ فيه إدارة للعاديات يكون سلطانها نافذًا على الكبير والصغير، كما فعلت مصر منذ أمد؛ فاحتفظت بالبقية الباقية من أعمال الغابرين، وخدمت أحباب الآثار وغلاة الهندسة من المحدثين. ولا يبحث عن العاديات إلا إذا توفر للباحثين العلم بالآثار على أحدث الطرق العلمية، حتى إذا استخرج شيء منها يضن به فلا يصدره إلى القاصية؛ بل يحفظ في دور الآثار تراث الأجداد. وأهم من هذا وذاك أن يتربى في الأمة الذوق في الجمال، وينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الأطفال، ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الأجداد، المنبعثة من أرجائها ريح فضائلهم، المشبعة بأنوار نبوغهم،

الصادرة من فيض قرائحهم وعبقريتهم، وعندئذ يصبح الشام كله متحفًا نفيسًا دونه أجمل المتاحف، وأفخم بيت يجمع المفاخر والمآثر.

انتهى الجزءُ الخامس من خطط الشام

ويليه الجزء السادس وأوله التاريخ المدني - البيع والكنائس والديرة